الفصل الرابع

أُمور أُخرى تتصل بالنبوة والأنبياء

- الفرق بين النبى والفيلسوف .
- الفرق بين النبى والولى .
- الفرق بين النبى والإمام .
- أفضلية الرسل .
- ختم النبـــوة .
- المتنبئـــون .

obeikandl.com

obeikandl.com

١ - الفرق بين النبى والفيلسوف

للنبوة طبيعة خاصة تُفرِّقها عن غيرها ، فلها خصائصها ولها سماتها المميزة لها - كذلك للأنبياء سمات معيَّنة ومهمة خاصة ووسائلهم المميزة - أى باختصار يفترقون عن غيرهم ، مما قد يلتقون معهم فى بعض المواضع والصفات ، لكن يفترقون عنهم فى البعض الآخر .

وإننا فى هذا المبحث سوف نحاول التمييز بين النبى والفيلسوف ، وبينه وبين الولى ، وبينه وبين الإمام ، على أننا نود أن نشير منذ البداية أنه ليس من غرضنا أن نُعلى أحد الجانبين على حساب الآخر ، أو نسوِّى بينهما ، بل المقصد من ذلك أن نميز بينهما حتى لا نخلط بينهما ونسئ فهم حقيقة كل منهما ، أليس الفهم الصحيح هو المقصد الأسمى الذى نسعى إليه من البحث .

وسوف نبدأ بالحديث عن الفرق بين النبى والفيلسوف ، وسوف نحاول أن نضع محاور أساسية نلتمس الفروق فيها ، وذلك كله لا يعدو مجرد إشارات موجزة .

يرى فلاسفة الإسلام اتفاق الفلسفة والدين فى الغاية ، ومن ثَمَّ اتفاق غاية الفلاسفة والأنبياء ، فغاية الفلسفة هى البحث فى الموجودات ودلالتها على الصانع لها ، وأنه كلما ازدادت معرفتنا بالموجودات ودقة صنعها ، ازدادت معرفتنا بالصانع ، وهنا تلتقى غاية الفلسفة مع الدين الذى أوصى باعتبار الموجودات كدليل على وجود الله تعالى [١] .

لكن ما هو الطريق الذى يسلكه كل من النبى والفيلسوف لتحقيق ذلك ؟

يمكن الإجابة على ذلك بإشارة موجزة ، بأن طريق النبى هو الوحى والإلهام ، أما طريق الفيلسوف فهو العقل ، فإذا كان كلاهما يتصل بالعقل الفعَّال (بلغة الفلاسفة) - أى الله (بتعبير الدين) - فالنبى طريقه الوحى ، والفيلسوف طريقه

---

(١) ابن رشد : فصل المقال ص ١٣

العقل ، ويذكر الفارابى أن فى مقدور المخيلة أن تصعد إلى العقل الفعَّال ، وأن تتلقى عنه الحقائق ، وذلك عن طريق الوحى ، أو الرؤيا الصادقة ، وهذا الاتصال يكون للأنبياء فى حال اليقظة وفى حال النوم .

ويذكر أيضاً أن طريق الفيلسوف فى الاتصال بالعقل الفعَّال هو طريق البحث والتأمل والدراسة والنظر ، وبفضل تلك التأملات العقلية ، يستطيع الإنسان أن يصعد إلى منزلة العقول العشرة ، ويترقى إلى درجة العقل المستفاد ويقتبس الأنوار الإلهية (١) .

ولقد أكد الكندى من قبل التفرقة بين علوم الأنبياء والفلاسفة من حيث مصدر العلم عند كل منهما ، فعلوم الأنبياء تعتمد على الإلهام ، وعلوم الفلاسفة تعتمد على النظر والتأمل ، ويقول الكندى مبيناً طبيعة طريق الأنبياء فى علمهم : « إن علم الرسل - صلوات الله عليهم - الذين خصهم الله تعالى به ، أنه بلا طلب ولا تكلف ولا بحث ، ولا بالرياضيات والمنطق ولا بزمان بل مع إرادته جَلَّ وتعالى بتطهير أنفسهم وإنارتها للحق بتأييده وتسديده وإلهامه ، ورسالاته ، فإن هذا العلم خاصة للرسل صلوات الله عليهم دون البَشر » (٢) .

نخلص من هذا إلى أن غاية كل من النبى والفيلسوف واحدة لكن الطريق إلى تحقيق تلك الغاية مختلف .

ولعل هذا ينقلنا إلى وجه آخر من أوجه الخلاف بينهما وهو طبيعة الأدلة التى يقدِّمها كل منهما ، أو بعبارة أخرى طبيعة أدلة الفلسفة وأدلة الدين ، وأى الأدلة أكثر يقيناً وأيها أكثر إقناعاً .

يمكننا أن نستخلص الإجابة على ذلك ، من خلال عرض موقف الكندى والفارابى من أدلة الوحى « النبى » وأدلة العقل « الفيلسوف » والمقارنة بينهما .

ونعرض أولاً : لمقارنة الكندى بينهما ، وهو يقدِّم المعرفة التى تأتى عن طريق

---

(١) الفارابى : آراء أهل المدينة الفاضلة ص ٦٦ - ٧٤

(٢) الكندى : رسائل الكندى ص ٣٧٢ - ٣٧٣

الوحى على المعرفة العقلية ، ويرى أن الوحى فوق الفلسفة ، وأن قوة الإقناع فى التعبير القرآنى يفوق طوق البَشر .

ويتضح ذلك الموقف فى عرضه للآيات القرآنية الدالة على البعث جواباً على تساؤلات المنكرين للبعث ، ويورد القرآن تساؤل المنكر للبعث للنبى عليه السلام وجواب ذلك التساؤل فى عبارات موجزة ودالة فى قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ ، قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ (١) .

ويشرح الكندى ذلك الدليل القرآنى الموجز المعبِّر فيقول : « فأى دليل فى العقول النيِّرة الصافية أبين وأوجز : أنه إذا كانت العظام ، بل إن لم تكن ، فممكن إذا بطلت بعد أن كانت ، وصارت رميماً ، أن تكون أيضاً ؟ فإن جمع المتفرق أسهل من صنعه ليس ومن إبداعه ، فأما عند باريهم فواحد لا أشد ، ولا أضعف ، فإن القوة التى أبدعت ممكن أن تنشئ ما أدثرت ، وكونها بعد أن لم تكن ، موجود للحس فضلاً عن العقل ، فإن السائل عن هذه المسألة الكافر بقدرة الله ، جَلَّ وتعالى ، يقر إن كان بعد أن لم يكن ، وعظمه لم يكن هو معدوم ، فعظمه كان اضطراراً ، بعد أن لم يكن ، فإعادتها وإحياؤها كذلك أيضاً ، فإنها موجودة حية ، فممكن أن تصير حية ، بعد إذ هى لا حية .

ثم بيَّن كون الشئ من نقيضه موجود ، إذ قال : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ (٢) فجعل من لا نار ناراً أو من لا حار حاراً فإذن الشئ يكون من نقيضه .

وأيضاً رد على المنكرين لإمكان الخلق من لا شئ ، على أساس أن الفعل يحتاج إلى زمان ، وذلك قياساً على الفعل الإنسانى ، يرد عليهم القرآن بقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (٣) .

---

(١) يس : ٧٨ - ٨٠ (٢) يس : ٨٠ (٣) يس : ٨٣

ويشرح الكندى ذلك الرد ، وموجز شرحه : أنه تعالى لا يحتاج إلى مدة زمنية يخلق فيها ، قياساً على خلقه وإبداعه للأشياء من عدم .

ويعلق الكندى على الأدلة والردود القرآنية على المنكرين ، فيقول : « فأى بَشر يقدر بفلسفة البَشر أن يجمع فى قول يُقدَّر بقدر حروف هذه الآيات ما جمع الله جَلَ وتعالى ، إلى رسوله ﷺ فيها ، من إيضاح أن العظام تحيا بعد أن تصير رميماً ، وأن قدرته تخلق مثل السموات والأرض ، وأن الشئ يكون من نقيضه ، كلف عن مثل ذلك الألسن المنطقية المتخيلة ، وقصرت عن مثله نهايات البَشر ، وحجبت عنه العقول الجزئية » .

وعلى هذا فالمعرفة التى تأتى عن طريق الوحى تعلو على طرق المعرفة الفعلية عند البَشر ، وأفضل منها إقناعاً وإيجازاً [١] .

أما عند الفارابى . . فإن طرق الفلسفة « الفيلسوف » يقينية ، أما طريق الدين « النبى » فإقناعى - ومن جهة أخرى تعطى الفلسفة حقائق الأشياء كما هى ، ولا يعطى الدين إلا تمثيلاً لها وتخييلاً .

ويقول الفارابى : « وتفهيم الشئ على ضربين ، أحدهما : أن يعقل ذاته ، والثانى : أن يتخيل بمثاله الذى يحاكيه ، وإيقاع التصديق يكون بأحد طريقين ، إما بطريق البرهان اليقينى وإما بطريق الإقناع ، ومتى حصل علم الموجودات أو تعلمت ، فإن عقلت معانيها أنفسها ووقع التصديق بها عن البراهين اليقينية كان العلم المشتمل على تلك المعلومات فلسفة .

وإن علمت بأن تخيلت بمثالاتها التى تحاكيها ، وحصل التصديق بما خيل منها عن الطرق الإقناعية ، كان المشتمل على تلك المعلومات بتسمية القدماء مِلَّة » [٢] .

والاختلاف فى طبيعة الأدلة لدى كل من الفيلسوف والنبى راجع إلى مهمة كل منهما ، فطبيعة مهمة النبى توجيهية إرشادية تهذيبية ، فهى موجهة إلى الناس

---

(١) الكندى : رسائل الكندى ص ٣٧٤ - ٣٧٦ (٢) الفارابى : تحصيل السعادة ص ٤٠

جميعاً ، وفِطَر الناس متفاوتة فمنهم مَن هو من أصحاب الفِطر الفائقة ، ومنهم مَن دون ذلك ، وتفاوتهم فى الذكاء وصواب الرأى ، كل ذلك يؤدى إلى أن الناس جميعاً ليسوا على درجة واحدة فى الإدراك ، وهم فى الأغلب الأعم يهتمون بالجانب العملى لا النظرى ، فحظ اشتغالهم بالأمور الدنيوية المحسوسة أكثر وأشد ، فحظ كل واحد منهم ، إما مال يجمعه أو لذة ينالها أو شهوة يقضيها .

فإذا كان هذا حال الجمهور وهم أكثر فئات الناس ، فجاء خطاب الأنبياء وأدلتهم موافقة لهم ، لأنهم لا يستطيعون بأن يرقوا « فوق الظاهر ولا يدركون إلا ما كان واقعاً فى خبراتهم ومشاهداتهم ، فجاءت أدلة الأنبياء ممثلة بأمور حسية ، وضرب أمثلة حسية لما فى عالَم الغيب ، واهتم بالأدلة الخطابية الإقناعية لأنها أكثر تأثيراً وإقناعاً للجمهور الأعم .

فإن طريق الحكمة ومجاوزة الظاهر يضر بالجمهور أشد الضرر ، فإنهم لا يستطيعون إدراك ذلك ، فضلاً عن تشويش عقيدتهم (١) .

فعلى هذا كانت طبيعة أدلة النبى إقناعية ، أما بالنسبة للفيلسوف فإنه لا يدخل فى مهمته هداية الناس وإرشادهم ، بل إن مهمته أن يفسر الكون والحياة والإنسان تفسيراً عقلياً ، وأن يبحث بحثاً عقلياً ويسير وفقاً لما تقضى به أحكام العقل .

والبحث العقلى أمر صعب على الجمهور الذى لا يهتم بالنظر ، لذا كان طريق الخاصة لا العامة ، فالخاصة يستطيعون إدراك النظر العقلى وممارسته ، وكانت طرق الفيلسوف البرهانية العقلية هى التى توافق العلماء والفلاسفة .

من هنا كان للفيلسوف طريقه وأدلته ولغته الفلسفية ومصطلحاته الفنية والتى تفرِّقه عن طريقة النبى وأدلته الخطابية .

وهذه بإيجاز وجوه التمايز والاختلاف بين طريق الفيلسوف وطريق النبى ، ولا يعنى تمايزهما أنهما متعارضان ، بل هما موافقان ، فكما سبقت الإشارة إلى أن

---

(١) ابن طفيل : حى بن يقظان ص ١٢٧ - ١٣١

الغاية واحدة ، وهى معرفة المبدأ الأول للموجودات وتحقيق السعادة القصوى للإنسان ، فكلاهما يجد الإنسان بالمعرفة الحقة والعمل الحق ، هذا عن طريق قلبه ، وذلك عن طريق العقل .

❊ ❊ ❊

٢- الفرق بين النبى والولى

يدلل الهجويرى فى « كشف المحجوب » على وجود الولاية فيقول : « اعلم قوَّاك الله أن هذه الولاية متداولة بين الخلق ، والكتاب والسُّنَّة ناطقان بها لقوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١) ، وقال أيضاً : ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾(٢) وقال فى موضع آخر : ﴿ اللهُ وَلِىُّ الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾(٣) .

وقال الرسول ﷺ : « إن من عباد الله عباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء » ، قيل : من هم يا رسول الله ، صفهم لنا نحبهم ، قال : « قوم تحابوا بروح الله من غير أموال ولا اكتساب ، وجوههم نور ، على منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس ، ثم تلا : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ » .

وقال النبى ﷺ أيضاً : « إن الله عَزَّ وجَلَّ يقول : من آذى لى ولياً فقد استحل محاربتى » .

والمراد من هذا أن نعلم أن لله عَزَّ وجَلَّ أولياء ، اختصهم بمحبته وولايته ، وهم ولاة مُلْكه الذين اصطفاهم وجعلهم آية فعله ، وخصَّهم بأنواع الكرامات ، وطهَّرهم من الآفات الطبيعية ، وأنقذهم من متابعة أنفسهم ، حتى صارت همتهم منحصرة به ، وليس لهم أُنس إلا معه ، وقد كانوا قبلنا فى القرون السابقة ، وهم لا يزالون حتى الآن ، وسوف يكونون إلى يوم القيامة » .

علينا أن نشير بادئ ذى بدء إلى معنى الولى ، ومن ثَمَّ يتضح لنا مكانته .

---

(١) يونس : ٦٢ (٢) فصلت : ٣١ (٣) البقرة : ٢٥٧

يقول عبد الرحمن الجامى فى نفحات الأنس فى باب الولاية والولى : « الولاية مشتقة من الولى وهى قسمان : ولاية عامة وولاية خاصة .

فالولاية العامة تشمل جميع المؤمنين ، قال الله تعالى : ﴿ اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (١) .

والولاية الخاصة مختصة بالواصلين من أرباب السلوك ، وهى عبارة عن فناء العبد فى الحق وبقائه به ، فالولى هو الفانى فيه والباقى به .

والفناء عبارة عن نهاية السير إلى الله .. والبقاء عبارة عن هداية السير فى الله ، لأن السير إلى الله ينتهى أمده متى قطع العبد بيداء الوجود بقدم الصدق .

والسير فى الله يتحقق عندما يمنح الله عبده وجوداً وذاتاً مطَّهرة من لوث الحدثان بعد الفناء ، حتى يرقى بها فى العالم متصفاً بالأوصاف الإلهية ومتخلقاً بالأخلاق الربانية .

يقول أبو على الجوزجانى رحمه الله : « الولى هو الفانى من حاله ، والباقى فى مشاهدة الحق لا يمكن له إخبار عن نفسه وليس له مع الله قرار » .

ويقول إبراهيم بن أدهم رحمة الله عليه لرجل : أتريد أن تكون ولياً من أولياء الله ؟ قال : نعم ، قال : لا ترغب فى شئ من الدنيا والآخرة ، وأفرغ نفسك لله تعالى ، وأقبل بوجهك عليه ، وعندما تجتمع فيك هذه الأوصاف تصبح ولياً » (٢) .

فالولى بذلك هو الذى يسير فى طريق الوصول إلى الله ، لكن يمكن أن نميز بين الأولياء ، فليسوا جميعاً بدرجة واحدة ، واصلين إلى الحق ، فانين فيه ، باقين به ، فمنهم مَن دون ذلك .

ولقد ذكر الترمذى أن الأولياء على صنفين : صنف أولياء حق الله ، وصنف أولياء الله ، وكلاهما يحسبان أنهما أولياء الله .

---

(١) البقرة : ٢٥٧

(٢) الدكتور قاسم غنى : تاريخ التصوف فى الإسلام ص ٣١٧ وما بعدها .

والتمييز بين فكرة أولياء الحقوق الإلهية وبين أولياء الله حقاً ، والتى تدور حولها فصول كتاب « ختم الأولياء » للترمذى ، قد تناولها ابن عربى وأدخل عليها بعض التنقيحات فقال :

« لله رجال كشف عن قلوبهم فلاحظوا جلاله المطلق ، فأعطاهم بذاته ما يستحقه من الأداب والإجلال ، فهم القائمون بحق الله لا بأمره ، وهو مقام جليل ، لا يناله إلا الأفراد من الرجال ، وهو مقام « أرواح الجمادات » ، ومن هذا المقام « تدكدك الجبل » و « صعق موسى » عليه السلام ، ولم يفتقر فى ذلك إلى الأمر بالتدكدك والصعق ، فهؤلاء خصائص الله قاموا بعبادة الله على « حق الله » و « هم الخارجون عن الأمر » .

ولله عبيد قائمون « بأمر الله » كالملائكة المسخَّرة . . . الذين ما حصل لهم هذا المقام ، فهم القائمون « بأمر الله » فهم « القائمون بحقوق العبودية » وهؤلاء « القائمون بحقوق الربوبية » فهؤلاء يحتاجون إلى « أمر » يصرفهم ، وأولئك يتصرفون بالذات تصرف الخاصية [1] .

وعلى هذا فأولياء الله ، يتفاوتون بالوصف والتحديد ، وهم أبدال يظهر الله خلفاء فى الأرض ، ينشرون دينه .

ولقد حد « ذو النون » الأبدال بأنهم « قوم ذكروا الله بقلوبهم تعظيماً لربهم لمعرفتهم بجلاله ، فهم حجج الله على خلقه ، ألبسهم النور الساطع من محبته ، ورفع لهم أعلام الهداية على مواصلته ، وأقامهم مقام الأدل لإرادته ، وأفرغ عليهم الصبر عن مخالفته ، وطهَّر أبدانهم بمراقبته ، وطيَّبهم بطيب أهل مجاملته ، وكساهم حللاً من نسج مَودته ، ووضع على رؤوسهم تيجان مسرَّته ، ثم أودع القلوب ذخائر الغيوب فهى معلقة بمواصلته ، فهمومهم إليه ثائرة ، وأعينهم إليه

---

(١) الحكيم الترمذى : ختم الأولياء ص ١١٧ ، ١١٨

بالغيب ناظرة ، قد أقامهم على باب النظر من قربه ، وأجلسهم على كراسى أطباء أهل معرفته » (١) .

إلا أن هذا التحديد الذى ذكره « ذو النون » لم يكن إلا تعبيراً عن وجهة نظره ، إذ أن غيره من أعلام الصوفية يرون غير ذلك ، فيرون أن للأولياء والأبدال والأقطاب قوى متغايرة للتصرف فى الأكوان والمشاركة فى جزء غير يسير من مسئولية دوام الوجود نفسه ، حتى ليظن أن وجودهم لازم .

ولقد ذكر عمار البدليس تفاوت الأولياء ، ووفقاً لذلك التفاوت ، يتفاوت تصرفهم من حيث يكون مطلقاً أو مقيّداً ، ويتفاوت تأثيرهم على الناس وأيضاً مدى منفعة الناس منهم ، ويقيس الأولياء ودرجاتهم على الأنبياء ودرجاتهم .

يقول عمار البدليس : « . . . فولى له الولاية على نفسه لا على غيره ، وولى له الولاية على نفسه وعلى أناس قليل ، وولى له الولاية على نفسه وعلى غيره مطلقاً ، وعلى خلق كثير وجم غفير .

فالولى المقيد ، هو الذى ولى ولم يعلم أنه ولى به ، حسَّن الله أخلاقه وأحواله وأقواله ، فالخلق منه فى دعة وراحة ، وينتفعون منه بشئ من أحواله فى كل حال ، وبشئ من دعواته ، لأنه يُستجاب له فى نفسه فى كل حال ، ويُستجاب له فى غيره إلا فى حال دون حال .

وهذا من حزب الصالحين ، على قياس : « نبى لم يتبعه أحد قط » ، لأنه لا تولية له على أحد ، فلا متابعة له من أحد ، لأنه لا علم له بحاله ، فلا علم له بحال غيره ، وهذا ولى لم يُعرف ولن يُعرف ولا يعرفه إلا الله . . .

والولى الذى ولى على نفسه وعلى أناس قليل ، فهو أيضاً مقيد التصرف على

---

(١) الحلية : لأبى نعيم : ١/ ١٢ نقلاً عن كتاب : حركة التصوف الإسلامى ، للدكتور محمد ياسر شرف ص١١٨

بعض دون بعض . فالخلق ينتفعون به على قدر ولايته وتصرفه ، ويُستجاب له فى أهل تصرفه ، ولا يُستجاب له فى غير أهل تصرفه .

وهذا فى حزب الأبرار على قياس : « نبى يتبعه نفر قليل » .

والولى الذى له التصرف على نفسه وعلى غيره - وهو الذى أحيل إليه خلق كثير وجم غفير - هو الذى أطلق تصرفه - وهذا ولى مطلق ، وتصرفه مطلق ، وكل مَن وصل إليه ، ظهر بركة تصرفه عليه ، فهو غياث الخلق بقوله وفعله وحاله ودعائه وسكوته ونظره وصحته ونومه ويقظته ، وهو الذى لم يبق له تصرف طبع ولا إرادة نفس ولا اختيار شهوة ، بل جميع تصرفه بالله ، يشاهد الله فى جميع الأفعال والتصرفات والحركات والسكنات وأن المتصرف فى جميع أفعاله بواسطته ، وهو المتصرف بواسطة الله » (١) .

ويمكن أن نستخلص من هذا النص عدة أمور :

أولاً : تفاوت مرتبة الأولياء ودرجاتهم ، فهم ليسوا جميعاً بدرجة واحدة ، ولا فى مرتبة واحدة .

ثانياً : لم يبين لنا النص على أى أساس يقوم هذا التفاوت بين الأولياء .

ثالثاً : يمكن أن يُفهم من هذا التفاوت ، أن المقصود به ، أن يكون فى مقابل النبى المرسل والنبى غير المرسل ، والتفرقة بينهما .

رابعاً : لم يوضح النص المقابل من الأنبياء لمرتبة الولى الذى له التصرف على نفسه وعلى غيره ، وهو له مطلق التصرف ، وقد يفهم من ذلك أنها مرتبة تعلو مرتبة الأنبياء ولا نظير لها عند الأنبياء ، مما قد يشير من طرف خفى إلى أن الولاية أعلى من النبوة - وسوف نعود إلى هذا فيما بعد .

---

(١) عمار البدليس : بهجة الطائفة - مخطوط برلين - ٢٨٤٢ / ١٦ ب / ١٧ مذكور فى نشرة الأستاذ فريتز ماير ، لكتاب فواتح الجمال وفواتح الجلال لنجم الدين لبرى ص ٢٩٨ - ٢٩٩ ، وهذا النص - الذى أوردناه - نشر فى كتاب ختم الأولياء للترمذى ضمن نصوص غير منشورة متعلق بالنبوة والولاية والتوحيد وشمائل الأولياء ومقامات العارفين ابتداء من القرن الأول للهجرة حتى القرن التاسع منها ص ٤٦٩ - ٤٧٠

وللأولياء علامات ظاهرة تابعة لثراء الباطن ، ولقد ذكر الترمذى علاماتهم الظاهرة والباطنة ، فقال :

« الأولياء هم الذين عليهم سمات ظاهرة من الله تعالى : قد علاهم بهاء القُربة ، ونور الجلال ، وهيبة الكبرياء ، وأنس الوقار ، فإذا نظر الناظر إليهم ذكر الله تعالى ، لما رأى عليهم من آثار الملكوت ، والقلب معدن هذه الأشياء ، ومستقر النور ، فإذا كان على القلب نور سلطان الوعد والوعيد تأدى إلى الوجه ذلك النور ، فإذا وقع بصرك عليه ذكَّرك التقوى ، ووقع عليك منه نهاية الصلاح والعلم بأمور الله تعالى ، ومتى كان على القلب نور سلطان الحق ، ذكَّرك الصدق والحق ووقع عليك نهاية الحق والاستقامة ، وإذا كان عليه نور سلطان الله تعالى وعظمته وجلاله ، ذكَّرك عظمته وجلاله وسلطانه ، وإذا كان على القلب نوره - وهو نور الأنوار - بهتك رؤيته » (١) .

والترمذى يذكر فى النص السابق السمات الظاهرة والباطنة ، والتى توجد فى الولى ، وأيضاً الأثر الحسى والباطنى فى المشاهد ، فهو يرى بهاءً ونوراً ويقع فى نفسه نهاية الصلاح ، وهيبة الكبرياء وأنس الوقار ، فكأنه يشهد بظاهره ويحس بباطنه ، أن ذلك الإنسان ولى من أولياء الله تعالى .

لكن هل يستطيع الولى أن يعرف نفسه أنه ولى ويعلن ولايته أم لا ؟

نجد أن القشيرى والهجويرى ذكرا أقوال المعارضين والمؤيدين .

فقال المعارضون : إن معرفته بكونه ولياً تستلزم أن يكون على يقين من نجاته وفلاحه ، وحصول مثل هذا اليقين أمر محال إذ لا يعرف أحد أنه يكون من الناجين يوم القيامة أم لا .

والخلاصة . . أن علم الولى بولايته وبمقامه القدسى وعصمته تستلزم اليقين بحسن العاقبة والفوز الأبدى .

---

(١) الترمذى : نوادر الأصول ص ١٤٠ ، وختم الأولياء ص ٤٥٧

ويقول المؤيدون : إن الولى يستطيع أن يكون عارفاً بولايته ، وأن يحكم بفوزه ومقامه القدسى ، ويكون ذلك عن طريق الكشف الذى مدَّ الله به الولى فعرف بذلك النجاة لنفسه وحفظ سلامة الروح له بفضله كما عصمه عن المعصية وعدم الطاعة .

ومن المسلَّم به أن الولى لم يكن معصوماً من الذنوب كالأنبياء ولكن الفضل الذى شمل حاله لا يتركه يتورط فى المعاصى ، ومعنى ذلك أنه إذا ارتكب ذنباً فى بعض الأحيان ، فإن ضلاله يكون أمراً عرضياً غير دائم [1] .

لقد أشرنا فيما سبق إلى بعض الأمور الخاصة بالأولياء ، وهى تُعَد أموراً ذات أهمية ، لأنها تلقى الضوء على ما نحن بصدد ذكره من فروق بين النبى والولى ، إننا يجب أن نشير إلى أنه ليس هناك رأى واحد ، يمكن الأخذ به ، أى إننا قد نجد مَن يجعل الولاية فوق النبوة ، أو النبوة فوق الولاية ، بل قد تصدر عن الواحد من أعلام الصوفية آراء متغايرة ، ولقد أردنا بهذا التنبيه الإشارة إلى صعوبة النسق الواحد والرأى الواحد المعبَّر به عن الموضوع ، وأيضاً يجعلنا ذلك أن نغُض الطرف عن الدخول فى تفاصيل تلك الآراء ، بل سوف نحاول أن نحدد الملامح العامة للآراء ، وأكثر هذه الآراء شيوعاً .

يمكن القول منذ البداية أن النبى والولى ، والنبوة والولاية ، كلاهما ينبع من معين واحد ، وهو ولاية الله لكل من النبى والولى ، فكلاهما ولى ، إنما الفارق بينهما يكون فى أن النبوة مقام خاص فى الولاية ، إذ أنها تختص بالتشريع ، بينما الولاية نبوة مطلقة .

يقول ابن عربى : « فمن الأولياء - رضى الله عنهم - الأنبياء ، صلوات الله عليهم تولاهم الله بالنبوة ، وهم رجال اصطنعهم لنفسه واختارهم لخدمته

---

(١) الدكتور قاسم غنى : تاريخ التصوف فى الإسلام ص ٣٢٩ - ٣٣٠

واختصهم من سائر العباد لحضرته ، شرع لهم ما تعبَّدهم به فى ذواتهم ، ولم يأمر بعضهم بأن يعدى تلك العبادات إلى غيرهم ، بطريق الوجوب .

فمقام النبوة مقام خاص فى الولاية ، فهم على شرع من الله : أحلَّ لهم أموراً ، وحرَّم عليهم أموراً ، قصرها عليهم دون غيرهم ، إذ كانت الدنيا تقتضى ذلك ، لأنها دار الموت والحياة ، وقد قال تعالى : ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ ﴾ (١) والتكليف هو الابتلاء .

فالولاية نبوة عامة ، والنبوة التى بها التشريع نبوة خاصة ، تعم من هو بهذه المثابة من هذا الصنف ، وهى مقام الرفعة فى الخطاب الإلهى .

ومن الأولياء - رضوان الله عليهم - الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، تولاهم الله بالرسالة ، فهم النبيون المرسلون إلى طائفة من الناس ولم يحصل ذلك إلا لمحمد ﷺ ، فمقام التبليغ هو المعبَّر عنه بالرسالة » (٢) .

وإذا كان هناك اتفاق بين النبى والولى ، فكلاهما ولى ، فإن هناك وجه آخر للاتفاق بينهما ، وهو أن كلاهما واجب الطاعة .

ولقد ذهب إلى ذلك الترمذى فى كتابه علم الأولياء ، إذ يقول : « فلما رفعه الله تعالى إليه جعل له فى أُمَّته خلفاء كرامة له ، ففارقهم ظل الهوى ، وأعتق نفوسهم من خيالها ، فكما جعل طاعته فى طاعة الرسول فضيلة له على غيره من الرسل ، فكذلك جعل طاعة هؤلاء الخلفاء واجبة على الأمة فضيلة لهم على غيرهم من الأولياء ، وهم خواص الأولياء ورجال الله فى أرضه الذين يغبطهم النبيون والشهداء يوم القيامة لمكانهم وقربهم من الله عَزَّ وجَلَّ » .

ويُلاحظ أن الترمذى يتحدث عن الأولياء وأن طاعتهم واجبة كوجوب طاعة الخلفاء والأنبياء بوصفهم أُولى الأمر الذين ورد فى حقهم قول الله تعالى : ﴿ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِى الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ (٣) ، (٤) .

---

(١) الملك : ٢ (٢) الترمذى : ختم الأولياء ص ٤٧٩ - ٤٨٠

(٣) النساء : ٥٩

(٤) الدكتور سامى نصر : مقدمة تحقيق كتاب علم الأولياء للحكيم الترمذى ص ٤٩ - ٥٠

ولقد وحَّد « عمار البدليس » بين مهمة الولى والنبى ، وذكر أن الشيخ فى قومه كالنبى فى أُمَّته ، فقال :

« لهذا قيل : الشيخ فى قومه كالنبى فى أُمَّته ، فجعل من بواطنهم وقلوبهم تبصرة ونوراً ، وبالنور جعل لهم من الهمة جاسوساً يتجسس فى القلوب ، فهى للقلوب بمثابة المساعى للملوك ، تخبر القلوب بخطرات قلوب المريدين .

ولها مقام الحراسة والحفظ ، فإلى مَن وجهوها وبمن وكلوها وعلى أى أمر سلطوها أظهرت قوتها وأتمت فعلها وأتقنت حفظها وحراستها ، لأنها الهمة الفعَّالة خصَّها الله لقلوب الأنبياء والأولياء لأجل الامتثال والخدمة والسمع والطاعة. فهى فى تصرف القلوب كالمملوك فى تصرف المالك ، فهى صاحب خير القلب من القلوب » (١) .

وعلى هذا يمكن القول بأن الولاية امتداد للنبوة العامة ، حيث إن نبوة التشريع قد انتهت بنبوة محمد ﷺ ، يقول ابن عربى : « فإن النبوة التى انقطعت بوجود رسول الله ﷺ ، إنما هى نبوة التشريع لا مقامها ، فلا شرع يكون ناسخاً لشرعه صلى الله عليه وسلم ، ولا يزيد فى حكمه شرعاً آخر ، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدى ولا نبى » أى لا نبى بعدى يكون على شرع يخالف شرعى ، بل إذا كان ، يكون تحت حكم شريعتى ».

ويستدل ابن عربى على دوام مقام النبوة العامة لا النبوة الخاصة وهى نبوة التشريع بنزول عيسى عليه السلام بالشرع لذى قرره محمد عليه السلام .

ويقول ابن عربى : « فهذا الذى انقطع وسُدَّ بابه (يقصد نبوة التشريع) لا مقام النبوة ، فإنه لا خلاف أن عيسى عليه السلام، نبى ورسول، وأنه لا خلاف

---

(١) كتاب ختم الأولياء ، للحكيم الترمذى ص ٤٧١

أنه ينزل فى آخر الزمان حكَماً مقسطاً عدلاً ، بشرعنا لا بشرع آخر ولا بشرعه الذى تعبَّد الله به بنى إسرائيل ، من حيث ما نزل هو به ، بل ما ظهر من ذلك هو ما قرره شرع محمد صلى الله عليه وسلم ، ونبوة عيسى عليه السلام ، ثابتة له تحققه ، فهذا نبى ورسول قد ظهر بعده ، صلى الله عليه وسلم ، وهو أنه يريد التشريع خاصة ، وهو المعبَّر عنه عند أهل النظر بالاختصاص ، وهو المراد بقولهم: إن النبوة غير مكتسبة » (١) .

وإذا كانت نبوة التشريع قد خُتمت بمحمد ﷺ ، فهل خُتمت الولاية أيضاً ، أى هل هناك خاتم للأولياء كما أن هناك خاتم للأنبياء ؟

يذكر الحكيم الترمذى أن للأولياء خاتماً كما أن للنبوة خاتماً ، فنبوة التشريع لها خاتم هو محمد ﷺ ، لكن الأولياء هم ورثة الأنبياء وامتداد لهم ، ولهم خاتماً أيضاً ، بعبارة أخرى أن لنبوة التشريع خاتماً هو محمد عليه السلام ، وللنبوة العامة المطلقة خاتم هو خاتم الأولياء .

يقول الترمذى : « ... إن الله تعالى لما قبض نبيه محمداً ﷺ ، جعل فى أُمَّته أربعين صِدِّيقاً ، بهم قوام الدنيا ، لأن الله جعل الأولياء والعلماء للناس - بعد الأنبياء ، خلفاً ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الأَرْضِ ﴾ (٢) ، ليكونوا للخلق غياثاً ، فبهم يسقون وبهم يرزقون ، وهم غياث الخلق ، كلما مات منهم رجل خلفه آخر ، حتى إذا انقرض عددهم ، ابتعث الله ولياً اصطفاه وقربه وأدناه ، فهو على منهاج رسول الله ﷺ ، حفظه وحماه عن كيد النفس والعدو .

فإذا برز الأولياء فهو سيدهم ، سادُ الأولياء كما ساد محمد ﷺ الأنبياء ، فينصب له مقام الشفاعة ، فيثنى على ربه بمحامد فيقر الأولياء بفضله عليهم فى العلم بالله .

فلم يزل هذا الولى مذكوراً فى البدو ، وأولاً فى الذكر وأولاً فى العلم ، ثم هو الأول فى المشيئة ثم الأول فى المقادير ، ثم الأول فى اللوح ، ثم الأول فى الميثاق

---

(١) كتاب ختم الأولياء ، للحكيم الترمذى ، ص ٤٨١ ، ٤٨٢ .

(٢) الأعراف : ١٢٩

ثم الأول فى المحشر ، ثم الأول فى الخطاب ، ثم الأول فى الوفادة ، ثم الأول فى الشفاعة ، ثم الأول فى الجوار ، ثم الأول فى دخول الدار ، ثم الأول فى الزيارة ، فهو فى كل مكان أول الأولياء ، كما كان محمد أول الأنبياء ، فهو من محمد ﷺ ، عند الأذن والأولياء عند القفا » (١) .

وهكذا يقرر الترمذى أن للأولياء خاتم كما أن للأنبياء خاتماً ، ويعلى من شأن خاتم الأولياء ، كما أن خاتم الأنبياء يفضل سائر الأنبياء ، فكذلك خاتم الأولياء يفضل سائر الأولياء ، بل إنه يلحق بخاتم الأولياء صفات خاتم الأنبياء ، حتى لقد يظن أن مرتبته أعلى من خاتم الأنبياء ، وإن كان قد ذكر ما يفهم منه علو درجة محمد ﷺ خاتم الأنبياء على خاتم الأولياء .

وفى نص آخر يذكر الترمذى خاتم الأولياء ويؤكد وجوده فيقول فى كتابه ختم الأولياء : « . . . إن قال قائل : فهل يجوز أن يكون فى هذا الزمان مَن يوازى أبا بكر وعمر رضى الله عنهما ؟

أجاب الترمذى : إن كنت تعنى فى العمل فلا ، وإن كنت تعنى فى الدرجات فغير مدفوع » .

فالترمذى يصرِّح بأن من الناس مَن يوازى عمر وأبا بكر فى الدرجات ، وعلل رأيه فقال : « وذلك أن الدرجات بوسائل القلوب وقسمة ما فى الدرجات بالأعمال، فمن ذا الذى حرز رحمة الله تعالى عن أهل هذا الزمان حتى لا يكون منهم سابق ولا مقرَّب ولا مجتبى ولا مصطفى » ؟

ثم يقول : « أوَ ليس المهدى كائناً فى آخر الزمان ، أوَ ليس كائن فى الزمان من له ختم الولاية ، وهو حُجَّة الله على جميع الأولياء يوم الموقف ، كما أن

---

(١) ختم الأولياء ، للحكيم الترمذى ص ٤٧٠ - ٤٧١

محمد - آخر الأنبياء - هو حُجَّة على جميع الأنبياء ، فكذلك هذا الولى الذى هو آخر الأولياء فى آخر الزمان » .

فنجد الترمذى قد صرح بوجود خاتم الأولياء فى آخر الزمان .

ثم يعود الحكيم الترمذى فيناقض فى كلامه ويقول : « وإنما يرجح ميزان أبى بكر رضى الله عنه بالعمل لأنه عمل فى أهل الرِّدَّة ، وهذا فضل يوازى عمل الأُمَّة أو يزيد » (١) .

وابن تيمية يبرئ الحكيم الترمذى من القول بأفضلية خاتم الأولياء على الأنبياء فيقول : « ودعواهم أن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء من الوجود ، فإن هذا لم يقله أبو عبد الله الحكيم الترمذى ولا غيره من المشايخ المعروفين .

بل الرجل أجَلُّ قدراً ، وأعظم إيماناً من أن يفترى هذا الكفر الصريح » .

ويبين لنا ابن تيمية أن خطأ الحكيم الترمذى كان يسيراً (٢) .

ولقد جاء فى كتاب معرفة الأسرار للحكيم الترمذى ما ينفى عنه تهمة تفضيله للولاية عن النبوة ، إذ قرر فى ذلك الكتاب بأسلوب ينفى عنه الاتهامات التى وُجِّهت إليه ممن فهموا آراءه على غير وجهها الصحيح ، وفى ذلك يقول :

« والنبوة تمام الدرجة ، والرسالة أجَلُّ من النبوة ، والخلافة فى الرسالة أجَلُّ من الرسالة بلا خلافة - والمزيد من الله تعالى لا ينقطع ، لأنه ليس لله نهاية ، والنبوة هى حالة تامة ، وما زاد عليها يكون زيادة على الفضل لا زيادة على النقصان ، قال عَزَّ وجَلَّ : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ (٣) .

وأيضاً يبرز الترمذى هذا التفاوت فى الدرجة والمكانة بين النبوة والولاية من

---

(١) الحكيم الترمذى : ختم الأولياء ص ٤٣٦ - ٤٣٨

(٢) الدكتور الطبلاوى محمود سعد : التصوف فى تراث ابن تيمية ص ٢٢٥

(٣) الإسراء : ٥٥

خلال تعرضه لموضوع مشترك بينهما وهو الحديث الذى هو من أجزاء النبوة ، ولكنه ليس هو النبوة ذاتها ، وهو من الأوصاف الأساسية للولاية والولى عند الترمذى ، باعتبار أنه جعل المحدَّثين أعلى من الصوفية وهم الصِّدِّيقون الحقيقيون، « والترمذى يُعبِّر عن كل أجزاء النبوة بقوله : « الحديث هو أجل جزء من النبوة ، ثم الصِّدِّيقية والفراسة ، ومن أجزائها العقل والفهم ، واللُّب وهو لُباب العقل ومخه ، واليقين والتوكل والبيان والسلامة والشجاعة والسخاوة والرحمة . . . . إلى الإيمان والإسلام . . . . . وبداية الحديث الإلهام ، وهو حديث طوى يقع من الله تعالى إلى وليه من غير أن يشهده الملائكة من واحد إلى واحد ، وفعل الحديث حضور القلب وزوال الواردات التى تقطعه ، والحديث من النبوة كالسمع من الوجه » [١] .

وإذا انتقلنا إلى ابن عربى ، فسوف نجد أنه يذكر أن للولاية العامة والخاصة ختم ، فالولاية المحمدية لها ختم ، وكذلك الولاية العامة لها ختم ، ويقول ابن عربى:

« ومنهم (الأولياء) رضى الله عنهم ، الختم وهو واحد لا فى كل زمان ، بل هو واحد فى العالم ، يختم الله به الولاية المحمدية ، فلا يكون فى الأولياء سيد المحمديين أكبر منه ، ومن ثم ختم آخر يختم الله به الولاية العامة ، من آدم إلى آخر ولى ، وهو عيسى عليه السلام ، هو ختم الأولياء » .

كما كان ختم دورة الملك ، فله يوم القيامة حشران ، حشر فى أُمَّة محمد ﷺ ، ويحشر رسولاً مع الرسل عليهم السلام » [٢] .

ويذكر ابن عربى علم الأولياء والأنبياء ويفاضل بينهما فيقول :

« و . . . وليس هذا العلم إلا لخاتم الرسل وخاتم الأولياء ، وما يراه أحد من الأنبياء والرسل إلا من مشكاة الرسول لخاتم ، ولا يراه أحد من الأولياء إلا من مشكاة الولى الخاتم ، حتى إن الرسل لا يرونه ، متى رأوه ، إلا من مشكاة خاتم

---

(١) الدكتور سامى نصر : مقدمة تحقيق كتاب علم الأولياء للترمذى ص ٥٠ - ٥١

(٢) ختم الأولياء ، للترمذى ص ٤٧٩

الأولياء ، فإن الرسالة والنبوة - أعنى نبوة التشريع ورسالته - تنقطعان ، والولاية لا تنقطع أبداً ، فالمرسلون ، من كونهم أولياء ، لا يرون ما ذكرناه إلا من مشكاة خاتم الأولياء .

وإن كان خاتم الأولياء تابعاً فى الحكم لما جاء به خاتم الرسل من التشريع ، فذلك لا يقدح فى مقامه ولا يناقض ما ذهبنا إليه ، فإنه من وجه يكون أنزل ، كما أنه من وجه يكون أعلى » (١) .

ويذكر ابن تيمية أن ابن عربى وابن سبعين وغيرهما يدَّعون أن الولاية أعظم من النبوة ، وأن خاتم الأولياء أعلم بالله من خاتم الأنبياء ، وأن خاتم الأنبياء ، بل وجميع الأنبياء ، إنما يستفيدون معرفة الله من مشكاة خاتم الأولياء .

ويقول : « إنه يوافق النبى فى معرفة الشريعة العملية ، لأنه يرى الأمر على ما هو عليه ، فلا بد من أن يراه هكذا ، وأنه أعلم من النبى بالحقائق العلمية لأنه يأخذ من المعدن الذى يأخذ منه المَلَك الذى يوحى به إلى الرسول » (٢) .

ويبرر ابن عربى نظريته فى علو رتبة الولاية بأن ذلك ينطبق على شخصية الرسول محمد ﷺ باعتبار أنه ولى قبل أن يكون نبياً ورسولاً .

وذلك لأن محيط الولاية عند ابن عربى واسع يشمل الرسول والنبى ، ويقول فى ذلك : « اعلم أن الولاية هى المحيطة العامة ، وهى الدائرة الكبرى ، فمن حكمها أن يتولى الله مَن شاء من عباده بنبوة وهى من أحكام الولاية ، وقد يتولاه بالرسالة ، وهى من أحكام الولاية أيضاً ، فكل رسول لا بد أن يكون نبياً ، وكل نبى لا بد أن يكون ولياً ، فكل رسول لا بد أن يكون ولياً » (٣) .

ومعنى هذا أن فى النبى تجتمع مرتبتان ، مرتبة الولاية ومرتبة النبوة ، والأولى أعلى من الثانية ، ولقد انطبق ذلك على شخصية محمد عليه السلام .

---

(١) ختم الأولياء للترمذى ص ٤٧٨ (٢) ابن تيمية : الرد على المنطقيين ص ٤٨٧

(٣) ختم الأولياء للترمذى ص ٤٨١

يقول ابن عربى فى الفصوص فى كلمة عزيزية : « فإذا سمعت أحداً من أهل الله تعالى يقول ، أو يُنقل إليك عنه أنه قال : الولاية أعلى من النبوة ، فليس يريد ذلك القائل إلا ما ذكرنا ، أى ولاية محمد فوق نبوته ، أو يقول : إن الولى فوق النبى والرسول ، فإنه يعنى بذلك فى شخص واحد وهو شخص محمد » .

ويبين لنا ابن عربى « أن الرسول عليه السلام من حيث هو ولى أتم منه من حيث هو نبى ورسول .

لا أن الولى التابع له أعلا منه .

فإن التابع لا يدرك المتبوع أبداً فيما هو تابع له ، إذ لو أدركه لم يكن تابعاً له » (١) .

ولعل فى كلام ابن عربى ما يشير إلى جعل الولاية عامة والنبوة خاصة ، فالأصل الولاية ، والنبوة قسم منها ، أو مقام من مقامات الولاية .

وهناك مِنَ الصوفية مَن يجعل الولاية تابعة للنبوة ، وأنها جزء منها ، يقول عمار البدليس :

« . . . . النبوة أول مقام عند العزة ، والولاية آخر مقام بعد النبوة ، ويقال: النبوة غصن من شجرة العزة والولاية غصن من شجرة الولاية ، والأصل فيه قوله عليه السلام : « أول ما خلق الله نورى » ، وقوله : « كنت نبياً وآدم بين الماء والطين » ، فالنبى عليه السلام أول المخلوقات » ، فالنبوة أول المقامات .

وإنما النبوة كلام منفصل عن الوسايط ، بل من الله كفاحاً : فلها التقدم أولاً وآخراً ، والولاية إنما هى كلام بواسطة من الله ، وذلك من أجزاء النبوة ، كما قال عليه السلام : « الاقتصاد والهدى الصالح والسمت الحسن جزء من أربعة وعشرين جزءاً من النبوة » ، فظهر أن النبوة من أجزاء العزة ، والولاية جزء من أجزاء النبوة .

---

(١) نقلاً عن كتاب التصوف فى تراث ابن تيمية ، للدكتور الطبلاوى محمد سعد ص ٢٢٤ - ٢٢٥

وقال الحكيم الترمذى : « النبوة كلام منفصل من الله وحياً ، معه روح من الله ، فيقضى الوحى ويختمه بالروح ، فيلزم تصديقه ، ومَن ردَّه فقد كفر ، لأنه رد كلام الله ، والولاية حديث من الله ، على لسان الحق ، معه السكينة تتلقاه السكينة التى فى قلب المجذوب ، فيقبله ويسكن إليه ومَن ردَّه لم يكفر لكنه عنت ويصير وبالاً عليه » (١) .

ولعل فى كلام الحكيم الترمذى ما يضع حداً فاصلاً بين النبوة والولاية ، وفرقاً واضحاً بين النبى والولى ، وذلك أن النبوة خاصة بالتشريع ، ومَن يَردّ ذلك التشريع يكفر ، والناس مطالبون باتباع النبى فيما جاء به ، أما الولاية فلا شأن لها بالتشريع ، وهى محصورة فى مجال المتصوِّفة ، ومَن يردها فلا يكفر .

ومن هنا يمكن القول بأن الولاية أقل مرتبة من النبوة ، ولقد أكد الترمذى هذا التفاوت فى مواضع أخرى من كتابه « ختم الأولياء » ، وبيَّن أن النبوة والولاية درجتان تأتيان من الله بالاجتباء ، لكن هناك تفاوت بين ما يناله كل من النبى والولى من ذلك الطريق ، فالنبى أرقى درجة وأعلى منزلة من الولى الذى قد ينال ما يناله النبى لكن فى درجة أقل ورتبه أدنى (٢) .

ويمكن أن نضيف فرقاً آخر وهو خاص بما يمنحه الله لكل من النبى والولى ، فهو تعالى يمنح النبى المعجزة ويمنح الولى الكرامة .

والفارق بينهما إنما يرجع إلى مهمة النبى وهى التشريع وضرورة تصديق الناس له ، ولكى يحدث ذلك التصديق ، يعطيه الله المعجزة ليتأكد الناس من صدقه .

أما الولى فليست مهمته التشريع ولا ضرورة لتصديق الناس له ، فإن الله يعطيه الكرامة ، وهو لا يتحدى بها ، ولا يطلبها ، وإنما تأتى منَّة وفضل من الله ، وتثبيت لقلبه ، وتأكيد لمنزلته .

---

(١) كتاب « ختم الأولياء » للحكيم الترمذى ص ٤٧٠

(٢) الدكتور سامى نصر : مقدمة تحقيق كتاب « علم الأولياء » للحكيم الترمذي ص ٥١ - ٥٢ ، وقد ذكر أقوالاً أخرى تشير إلى أسبقية النبوة على الولاية .

لعلنا بذلك نكون قد أشرنا بإيجاز إلى طبيعة كل من النبى والولى وأوجه الاتفاق وأوجه التمايز بينهما .

* * *

٣ - الفرق بين النبى والإمام

لقد احتلت فكرة الإمامة والإمام عند الشيعة مكاناً مهماً ، بل إن أفكار وآراء الشيعة كلها تدور حول هذه الفكرة ، والتى قامت الشيعة على أساسها .

لعل من هذه الإشارة الموجزة يتبين لنا مدى أهمية فكرة الإمامة والإمام لدى الشيعة ، والتى رفعت من قدرها ومكانتها .

والذى يهمنا الإشارة إليه هو النظرة العامة للإمام ودوره الدينى والفرق بينه وبين النبى ، على أننا لا بد أن ننبه منذ البداية ، إلى أنه ليس هناك رأى واحد بإزاء هذه المواقف ، لأن الشيعة ليسوا فرقة واحدة بل فرقاً متعددة ، وكل فرقة تحوى فى داخلها فرقاً أخرى ، ولعل من أهم هذه الفرق الرئيسية ، والتى تضم فى داخلها فرقاً متنوعة ، يمكننا أن نميز بين ثلاث فرق رئيسية هى :

الإمامية الإثنا عشرية الجعفرية .

والإسماعيلية .

والزيدية .

ويمكننا أن نميز أيضاً بين اتجاهات مغالية ومتطرفة فى آرائها ، وبين اتجاهات تميل إلى حد ما فى الاعتدال .

ولعل فرقة الزيدية تمثل فى مجموعها جانباً من الاعتدال ، بالقياس إلى الفرق الشيعية الأخرى .

وليس من عملنا التعرض لهذا كله ، بل سوف نقصر حديثنا على موضوع واحد وهو الإمام وعلاقة الإمام بالنبى والفرق بينهما .

وعلينا منذ البداية أن نعرض للمعنى اللُّغوى للإمامة والإمام .

الإمامة لغة : التقدم . تقول : أمَّ القوم وبهم : تقدمهم .

والإمام ما ائتم به الناس من رئيس أو غيره ، هادياً كان أوضالاً ، ويُطلق لفظ الإمام على الخليفة وهو السلطان الأعظم وإمام الرعية ورئيسهم .

ويُطلق لفظ الإمام كذلك على القرآن الكريم ، فهو إمام المسلمين ، وعلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهو إمام الأمة بأئمتها ، وعليهم جميعاً الائتمام بسُنَّته التى نص عليها .

ولم يرد لفظ الإمامة فى القرآن الكريم ، وإنما ورد لفظ : « إمام » و « وأئمة » ، قال تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً ، قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى، قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ ﴾ (١) ، أى جاعلك قدوة يؤتم به .

وقال سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ (٢) .

وقال سبحانه : ﴿ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ﴾ (٣) - أى قاتلوا رؤساء الكفر وقادتهم الذين صار ضعفاؤهم تبعاً لهم .

وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ (٤) - أى من تبعهم فهو فى النار يوم القيامة .

ومن هذا المفهوم اللُّغوى يمكن القول بأن هناك ترادفاً بين الإمامة والخلافة .

ويفسِّر هذا الإمام أبو زهرة - فيقول : « سُمِّيت الخلافة لأن الذى يتولاها ويكون الحاكم الأعظم للمسلمين يخلف النبى - صلى الله عليه وسلم - فى إدارة شئون المسلمين ، وتسمى الإمامة لأن الخليفة كان يسمى إماماً ، ولأن طاعته واجبة، ولأن الناس يسيرون وراءه كما يُصلُّون وراء من يؤمهم للصلاة » (٥) .

---

(١) البقرة : ١٢٤ (٢) الأنبياء : ٧٣

(٣) التوبة : ١٢ (٤) القصص : ٤١

(٥) الدكتور على أحمد السالوس : أثر الإمامة فى الفقه الجعفرى وأصوله ص ٩ - ١٠

ولقد كانت الإمامة أول مظهر من مظاهر الخلاف بين المسلمين .

فلقد ذكر الأشعرى أن أول خلاف بين المسلمين من بعد نبيهم ﷺ اختلافهم فى الإمامة ، فلقد انقسم المسلمون إلى ثلاث فرق ، كل فريق يرى أنه أولى بالإمامة .

فلقد رأى الأنصار أنهم أحق الناس بالخلافة لأنهم أول من آوى الرسول ونصره ، ورأى المهاجرون أنهم أحق الناس بالخلافة لأنهم أول الناس إسلاماً ، وكانوا قرشيين فى معظمهم - ورأى بنو هاشم أنهم أقرب القرشيين إلى الرسول عليه السلام وهم أحق بالخلافة .

لكن سرعان ما انتهى الخلاف ، وحسم أبو بكر ذلك الخلاف وبايعه المهاجرون والأنصار ، ولم يدم الخلاف طويلاً بين المهاجرين ، فلقد بايع علىّ بن أبى طالب أبا بكر ، وإن تأخر فى مبايعته له مدة حياة زوجته فاطمة بنت رسول الله ﷺ .

ولقد حدث خلاف حول عثمان بن عفان ، وأدَّى ذلك إلى قتله ، واختُلف فى قتله ، فقال أهل السُّنَّة ، إنه كان معيباً فى أفعاله ، قتله قاتلوه ظلماً وعدواناً ، وقال قائلون بخلاف ذلك .

ثم بويع علىّ بن أبى طالب ، فاختلف الناس فى أمره بين منكر لإمامته وبين قاعد عنه ، وبين قائل بإمامته معتقد لخلافته .

ثم حدوث حرب طلحة والزبير وحربهما لعلىٍّ بن أبى طالب ، ثم قتال علىّ ومعاوية وحدوث التحكيم .

ولما قبل علىٌّ التحكيم اختلف أصحابه عليه ، ورفض قوم منهم التحكيم وطالبوه بمواصلة القتال ، ولم يجبهم علىّ إلى ما طلبوه ، وخرجوا عليه وقاتلوه وسُمُّوا خوارج، بينما ظل فريق على مناصرة علىّ بن أبى طالب وسُمُّوا شيعة [1] .

ولقد تطور الخلاف بعد ذلك فى الإمامة ، هل هى بالنص أو التعيين ، وهل تتم بعقد أهل الحل والعقد ، وهل هى واجبة أم لا ؟ وهل هى سُلْطة روحية فقط أم زمانية ؟ أم الاثنين معاً ؟

---

(١) الأشعرى : مقالات الإسلاميين : ١/ ٣٩ - ٦٤

لعلنا بهذه الإشارات الموجزة نكون قد وصلنا إلى معرفة بداية البحث فى الإمامة ، ووضع نظريات فلسفية حولها ، ولقد احتلت لدى الشيعة - خاصة الإمامية - مكانة هامة .

فلقد عدَّ الإمامية مسألة الإمامة من أركان الدين ، وأصلاً من أصوله ، بل هى عندهم من أهم المطالب فى أحكام الدين ، وأشرف مسائل المسلمين ، والتى بسببها يحصل نيل درجة الكرامة ، وهى أحد أركان الإيمان المستحق بسببه الخلود فى الجنان بالتخلص من غضب الرحمن ، وذكروا حديثاً نسبوه إلى النبى ﷺ ، فقالوا : قال رسول الله ﷺ : « من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية » .

ولقد تعقب ابن تيمية تلك الآراء والحجج ونقدها وردّ عليها ، وبيَّن تهافتها وبُعدها عن الحق ، ومغالاتها (١) .

والذى يهمنا هو الإشارة إلى موقف الإمامية وعدّها شرطاً من شروط الإيمان ، بل من أهم شروطه ، وأنه لا يتم الإيمان إلا بالاعتقاد بها ، فمَن لم يذهب مذهبهم فى الإمامة فهم يُجمعون على أنه غير مؤمن ، وإن اختلفوا فى الحكم عليه بالكفر أو الفسق ، وأكثرهم اعتدالاً يرى أنه ليس مؤمناً بالمعنى الخاص ، وإنما هو مسلم بالمعنى العام ، ما لم يكن مبغضاً للأئمة وشيعتهم فضلاً عن حربهم ، فإنه يُعَد كافراً عند جميع الجعفرية .

بل ويذهبون إلى أبعد من ذلك عندما يقررون أن إنكار الإمامة أشد شراً من إنكار النبوة ، فلقد ذكر « الحلى » ذلك فقال : « الإمامة لطف عام ، والنبوة لطف خاص ، لإمكان خلو الزمان من نبى حى بخلاف الإمام . . . وإنكار اللطف العام هو من إنكار اللطف الخاص » .

وعقب أحد علمائهم على هذا بأنه « نِعْمَ ما قال » ، وأضاف: « وإلى هذا أشار الصادق عن منكر الإمامة بأنه شر الثلاثة ، فعنه أنه قال : الناصبى شر من اليهودى،

---

(١) ابن تيمية : منهاج السُّنَّة النبوية : ١/١٦ وما بعدها .

قيل : وكيف ذلك يابن رسول الله ؟ فقال : إن اليهودى منع لطف النبوة وهو خاص ، والناصبى منع لطف الإمامة وهو عام .

وأيضاً يقول بابوية القمى الملقب عندهم بالصدوق : « اعتقادنا فيمن جحد إمامة أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب والأئمة من بعده ، أنه كمن جحد نبوة جميع الأنبياء ، واعتقادنا فيمن أقر بأمير المؤمنين وأنكر واحداً من بعده من الأئمة بمنزلة مَن أقر بجميع الأنبياء وأنكر نبوة نبينا محمد » .

وقال المفيد : « اتفقت الإمامية على أن من أنكر إمامة أحد من الأئمة وجحد ما أوجبه الله تعالى له من فروض الطاعة ، فهو كافر ضال مستحق للخلود فى النار » [1] .

وعلى هذا فالإمامية ترفع مرتبة الإمامة إلى مرتبة النبوة ، بل لا نجانب الصواب حينما نقول : بأنها ترفعها فوق مرتبة النبوة .

ونخلص من هذا كله إلى موقف الإمامية من وجوب الإمامة وأنها ركن من أركان الدين ، بل هى أهم أركانه على الإطلاق ، والإيمان بإمام العصر قاعدة إمامية تتصل بجوهر العقيدة أوثق اتصال .

والجدير بالذكر أن الإمامية تجعل الإمامة جزءاً من العقيدة ، بناء على أنها لطف من الله ، وهذا اتجاه معتزلى واضح [2] .

تتصل نظرية الإمامة بأفكار عديدة ، كالتبنى الروحى ، والإمام المستودع ، والإمام المستقر ، والنبى الناطق ، والمعنى الظاهر والباطن ، . . . وإلى غير ذلك من الآراء والأفكار .

لكننا فى هذه العجالة ليس بوسعنا أن نخوض فى تلك الأفكار أو حتى مجرد الإشارة إليها ، وسوف نكتفى بالإشارة بإيجاز بما يتصل بالإمامة والنبوة أو الإمام والنبى .

---

(١) نقلاً عن كتاب أثر الإمامة فى الفقه الجعفرى للدكتور على أحمد السالوس ص ٢٩ - ٣٠ ، والأشعرى : مقالات الإسلاميين : ١/ ١٢٠ - ١٢٩

(٢) الدكتور على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام : ٣/ ٢٢

ويمكن القول بأن الإمامة هى امتداد للنبوة ، وأن الإمام هو الذى يخلف النبى .

يذهب الإمامية إلى أن الولاية باطن النبوة ، وأن الحقيقة النبوية مزدوجة ذات بُعْدين ، خارجى ظاهر ، وداخلى باطن ، والبُعْد الظاهرى كان له ظهوره الأرضى النهائى بشخص النبى محمد ، كذلك للبُعْد الباطنى تجليه الأرضى ، ولقد تجلى ذلك البُعْد فى الشخص الذى كان من بين البَشر جميعاً أقرب الناس إلى الرسول، وهو الإمام علىّ بن أبى طالب .

وهناك نبوة عامة مطلقة ونبوة خاصة مقيدة ، أما الأولى فهى خاصة بالحقيقة المحمدية المطلقة ، الكلية والأصلية ، مما قبل الأزل وإلى بعده ، أما الثابتة فمكوَّنة من حقائق الأولى الجزئية ، نعنى المظاهر الخاصة للنبوة التى شغلها الأنبياء ، الذين كان نبى الإسلام خاتمهم دوراً بعد دور ، وكانوا بذلك مظهراً للحقيقة المحمدية .

وكذلك بالنسبة للولاية التى هى باطن النبوة الباقية ، ثمة ولاية مطلقة وعامة ، وولاية مقيَّدة خاصة ، وكما كانت نبوة كل من الأنبياء حقيقة ومظهراً للنبوة المطلقة ، كذلك فإن ولاية الأولياء ، هى الأخرى ، حقيقة ومظهر للولاية المطلقة التى كان خاتمها الإمام الأول علىّ بن أبى طالب ، فى حين أن خاتم الولاية المحمدية هو « المهدى » الإمام الثانى عشر أو الإمام المستور ، والإمامة المحمدية هى خاتمة الولايات ، ومجموع الأنبياء بالنسبة لخاتم النبوة كانوا ما كانه هو بالنسبة لخاتم الأولياء [1] .

وعلى هذا يمكن القول بأن دورة النبوة قد خُتمت مع خاتم النبيين ، لكن هناك دورة ثانية عند الشيعة هى دورة الولاية ، والتى تبدأ عند ختام النبوة .

إن هذا المفهوم يعيد إلى الأذهان ما ذكره الصوفية من أن الولاية تخلف نبوة التشريع التى تنتهى بمحمد عليه السلام ، أما الولاية فهى النبوة العامة التى لا تنتهى .

---

(١) هنرى كوربان : تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٨٦ - ٩٢

ولقد أكد الإمامية على العلاقة بين الولاية والنبوة والرسالة ، ثم بين شخص الولى وشخص النبى والرسول ، فإذا تمثلنا هذه المفاهيم الثلاثة على شكل دوائر ثلاث ذات مركز واحد ، تمثلت الولاية بالدائرة المركزية لأنها باطن النبوة ، وتمثلت النبوة بالدائرة الوسطى لأنها باطن الرسالة التى تمثلها الدائرة الخارجية ، فكل رسول هو نبى وولى أيضاً ، وكل نبى هو ولى أيضاً ، أما الولى فهو ولى فحسب .

ويعلون من شأن الولاية وأنها أجَلُّ من صفة النبوة ، وهذه أجَلُّ من صفة الرسالة ، فالرسالة كالقشرة والنبوة كاللُّب ، أما الولاية فمثل زيت هذا اللُّب .

وعندما يؤكد الشيعة الاثنا عشرية تقدم الولاية ، فإنهم لا يرمون من ذلك إلى أن شخص الولى وحده يتقدم على شخص النبى والرسول ، ولكنهم يعتقدون أنه عندما تتوفر الصفات الثلاث فى نفس الشخص - أى فى نبى الإسلام - فإنه تكون للولاية الأولوية بينها لأنها منبع وأساس ومرتكز الصفتين الأخريين [1] .

وعلى هذا فالإمامة هى الوجه الآخر للحقيقة المزدوجة للنبوة ، وأن دورها يتلو دور النبوة .

وأنه لا بد أن يكون فى كل عصر إمام هاد يخلف النبى فى وظائفه من هداية البَشر وإرشادهم إلى ما فيه الصلاح والسعادة [2] .

ويقدِّم الإسماعيلية نظريتهم فى الإمام المستودع والإمام المستقر والتفرقة بينهما مما يؤكد استمرار النبوة على شكل آخر هو الإمامة ، وأن الإمامة هى الإرث الروحى للنبوة ومظهر بقائها واستمرارها .

والإمام المستودع هو ابن الإمام وأكبر أبنائه وأعرف الناس بأسرار الإمام ، وليس له الحق فى تفويض الإمامة إلى ذُرِّيته ، أما الإمام المستقر فهو الذى يتمتع بامتيازات الإمامة كلها ، وله الحق فى أن يفوِّضها لأخلافه .

---

(١) هنرى كوربان : تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٩٢ ، ٩٣

(٢) الدكتور على أحمد السالوس : عقيدة الإمامة عند الشيعة الاثنا عشرية ص ٣٠

ويرى الإسماعيلية أن مرتبة الاستيداع هى مرتبة النبوة والرسالة ، أما مرتبة الاستقرار فهى مرتبة الإمامة والوصاية والولاية .

وأول مستودع هو النبى إبراهيم والذى قد اؤتمن على مرتبة الاستقرار .

وتوالى الأمر ، إلى أن وصل إلى محمد عليه السلام ، حيث اجتمعت فيه كل المراتب : النبوة والرسالة والإمامة والولاية والوصاية ، فهو أكمل البَشر جميعاً .

ثم سلَّم محمد الرسول فى يوم غدير خم مرتبة الاستقرار إلى علىّ بن أبى طالب ولأولاده الأئمة من بعده ، ولإمام الاستقرار كل صفات صاحب الاستيداع إلا فى الرسالة والنبوة .

وعندما أعلن محمد ﷺ استقرار الإمامة فى علىّ أصبح علىّ الإمام الناطق ، وانتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى ، وترك إمامين : إماماً صامتاً هو القرآن ، وإماماً ناطقاً هو علىّ .

واستندوا فى هذا إلى أن علياً كان يتلو فى المصحف حتى قرأ : ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ﴾ (١) ، فوضع المصحف على رأسه وصاح ثلاث مرات : « يا كتاب الله انطق » ، معلناً أنه الكتاب الناطق وأن القرآن الكتاب الصامت ، أو بمعنى أدق : أن علياً هو التأويل ، والقرآن هو التنزيل ، والتنزيل كلام الله ، والتأويل روح الله ، أليس التنزيل هو روح التأويل والناطق والمستقر نور الله : « أنا ومحمد من نور الله ، ومحمد هو « القلم » وهو السابق ، وعلىّ هو اللوح وهو التالى ، وهو المسيح ، وهو وجه الله ، ويد الله » .

وفى إيجاز . . لقد انتهت إلى الإمام المستقر كل فضائل وصفات السابقين .

لكن الإسماعيليين أعلنوا فى حسم وإصرار أن مقام الوحى مقام علىّ ، مقام الإمام المستقر أدنى من مقام الرسول ﷺ .

---

(١) الجاثية : ٢٩

وانتقل علىّ إلى الآخرة ، واستودع الإمامة ابنه الحسن ، وتوالى الأمر بعد ذلك فى الأئمة الذين يعترف بهم الإسماعيلية [1] .

وما دامت الإمامة كالنبوة ، والإمام كالنبى ، فلا بد من النص على ذلك من الله تعالى على لسان رسوله ﷺ أو على لسان الإمام المنصوب بالنص إذا أراد أن ينص على الإمام من بعده ، وحكمها فى ذلك حكم النبوة بلا فرق ، فليس للناس أن يتحكموا فيمن يعينه الله هادياً ومرشداً لعامة البَشر ، كما ليس لهم حق ترشيحه أو انتخابه ، لأن الشخص الذى له من نفسه القدسية استعداد لتحمل أعباء الإمامة العامة وهداية البَشر قاطبة يجب ألا يعرف إلا بتعريف الله تعالى له . ولا يُعيَّن إلا بتعيينه .

ويرى الإمامية الاثنا عشرية أن النبى عليه السلام قد نص على خليفته والإمام من بعده ، فعيَّن ابن عمه علىّ بن أبى طالب أميراً للمؤمنين وأميناً للوحى ، وأماماً للخلق فى عدة مواطن ، ونصبه وأخذ البيعة له بإمرة المؤمنين يوم « غدير خم » ، كما أنه صلى الله عليه وسلم بينَّ أن الأئمة من بعده اثنا عشر ، نص عليهم جميعاً بأسمائهم ثم نص المتقدم منهم على مَن بعده [2] .

وإذا كان الإمام بالنص والتعيين امتداداً للنبى ومهمته ، فما هو مبلغ علم الإمام وطريقه إلى العلم ؟

يذكر لنا الأشعرى أن الإمامية قد أعلوا من مرتبة علم الإمام ، فزعمت فرقة منهم أن الإمام يعلم كل ما كان وكل ما يكون ، ولا يخرج شئ عن علمه من أمر الدين ولا من أمر الدنيا .

ولا شك أن هذا القول مغالٍ فيه ، بل إن فيه معنى مساواة علم الله تعالى بعلم

---

(١) الدكتور على سامى النشار : تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام : ٢/٣٥٩ - ٣٦١

(٢) الدكتور على أحمد السالوس : عقيدة الإمامة عند الشيعة الإثنى عشرية ص ٣١ - ٣٣ ، ولقد أورد أسماء الأئمة الإثنا عشرية الذين يقول الإمامية بأن النبى عليه السلام قد نص عليهم .

الإمام ، أو مساواة علم الإمام بعلم النبى الذى يُطلعه الله على المستقبل الذى ينفرد بعلمه سبحانه .

وهناك فرقة أخرى كانت أقل غُلُوّاً فى علم الإمام ، فقالت بأن الإمام يعلم كل أمور الشريعة والأحكام ، وإن لم يُحط علماً بكل شئ ، وأنه يعلم كل ما يحتاجه الناس من الشرائع ، وما لا يحتاجه الناس فقد يجوز أن لا يعلمه الإمام (١) .

ويرى الإمامية أن الإمام وارث العلم النبوى ، وأنه دائم الاتصال بالعلم الإلَهى ، وهو لم يصل إلى ذلك عن طريق الاكتساب ، بل ينقدح العلم فى نفسه انقداحاً ، إنه منه وفى طبيعته ومادته انتقل إليه العلم الغيبى بعد تسلسل طويل فى أرواح الروحانيين من الملائكة والأنبياء .

فى البدء كانت هناك مادة نورانية ، انتقلت من نبى إلى نبى حتى وصلت محمداً ومنه إلى علىّ وفاطمة ، واجتمع النور فى الأئمة الفاطميين ، فمادة أرواحهم من هذا النور الخلاب الذي بهر المخلصين من الشيعة فآمنوا به إيماناً عجيباً ، ولقد آمن من قبل الملائكة حين انتقل هذا النور إلى آدم . فسجد الملائكة إلا إبليس أبى واستكبر ، وقد أمر الله آدم أن ينظر إلى قمة العرش الإلَهى ، حيث شاهد تلك الأجسام النورانية المقدسة منعكسة فى هذا القدس العظيم ، كما تنعكس صورة الوجه فى مرآة صافية .

فانعكاسات هذه الأجسام المقدسة محتواة فى العرش الإلَهى ، ومنها إمام العصر ، يؤمن به خلص المؤمنين ، بينما يكفر به أتباع الشياطين .

فالعلم الغيبى إذن للأئمة أشبه بالوحى ، بل إن علوم الأئمة أشمل وأعظم من علوم الأنبياء باستثناء النبى محمد عليه السلام .

ويورد الإثنى عشرية قولاً ينسبونه إلى الإمام جعفر الصادق هو قول الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ ﴾ ؟ (٢) قال الصادق : « منذ نزل ذلك الروح على النبى ما صعد إلى السماء ، وهو فينا » .

---

(١) الأشعرى : مقالات الإسلاميين : ١/١٢٩ (٢) الشورى : ٥٢ .

ويحدد الرضا اتصال الإمام بالوحى : « إنه يسمع الكلام ولا يرى الشخص ، أى يتلقى الوحى ولا يرى الملك ، والإمام فى هذا يختلف عن النبى الذى يتلقى الوحى ويرى المَلَك » .

ويفرِّق الملا صدر بين علم الأنبياء والأولياء ، وبين علم الفلاسفة فيقول :

« فلم يفارق الإلهام (علم الأنبياء والأولياء) الاكتساب (علم الفلاسفة) فى نفس العلم ولا فى محله (القلب) ، ولا فى سببه (الملاك ، الكلام ، جبريل ، الروح القدس ، العقل الفعال) ، ولكن مفارقته فى جهة زوال الحجاب وأن ذلك ليس باختيار العبد ، وكذا لم يفارق الوحى الإلهام فى شرع من ذلك ، بل فى مشاهدة المَلَك المقيد للعلم ، فإن العلوم إنما تحصل فى قلوبنا من الله بواسطة الملائكة ، وإليه أشار بقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ (١) .

ويبدو أن رأى الإمامية فى علم الإمام متصل بولاية الأئمة ، إذ كيف يفرض الله طاعة الإمام على العباد ، ثم يحجب عنه أمر السماء ، فيتصرف فى العباد على غير يقين ، فالإمام مرجع الناس جميعاً ، أو بمعنى أدق : هو الولى الكامل (٢) .

وننتقل بعد ذلك إلى الحديث عن وظيفة الإمام ، وهى تعد فى عبارة موجزة امتداداً لوظيفة النبى - وسوف نتحدث عن وظيفته الدينية والدنيوية ، فهو المشرِّع الأول والمثل الذى يُحتذَى به ، والقدوة التى يُقتَدى بها ، ولا تتحقق الكرامة ولا السعادة لأفراد الأمة إلا بفضل الجهد الذى يبذلونه فى التشبه بإمامهم ، فوظيفة الإمام اجتماعية أخلاقية ، وظيفة تنظيم وتشريع ، علاوة على قيادته الروحية وزعامته الدينية (٣) .

---

(١) الشورى : ٥١

(٢) الدكتور على سامى النشار : تاريخ الفسفة فى الإسلام : ٢/٢٢٣ - ٢٢٤ ، وأيضاً هنرى كوربان : تاريخ الفلسفة الإسلامية .

(٣) هنرى لاووست : نظريات شيخ الإسلام ابن تيمية فى السياسة والاجتماع ص ٢٢٠

وسوف نشير فيما يلى بإيجاز إلى تلك الوظيفة المهمة للإمام الذى هو امتداد للنبى ومهمته .

أشرنا فيما سبق إلى أن القرآن هو الإمام الصامت ، وأن النبى هو الإمام الناطق ، وأنه بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى أصبح الإمام علىّ ومَن بعده الأئمة يمثلون دور الإمام الناطق ، فدور الإمام بالنسبة إلى القرآن الصامت كدور النبى عليه السلام سواء بسواء .

وما دام القرآن صامتاً فلا بد من الرجوع إلى القرآن الناطق ، أى إلى الإمام لكى يوضح للناس مراد الله تعالى .

ويقول الإمامية بأن للقرآن معنى مستوراً وأعماقاً باطنة ، وهو ليس كتاباً يمكن استخراج علمه بالفلسفة المشتركة ، بل لا بد من أن نؤوِّل النص وأن نعود به إلى مستوى يكون فيه معناه حقيقياً ، وتلك ليست مهمة الجدل الكلامى لأننا لا ننشئ هذا المعنى بالقياس ، وإنما نحتاج فى ذلك إلى رجل ملهَم ذى إرث روحى ، يمسك بالظاهر والباطن معاً ، وهذا هو حُجَّة الله وقَيِّم الكتاب والإمام [1] .

وعلى هذا فللإمام مثل ما للنبى من بيان القرآن وتقييد مطلقه وتخصيص عامه.

والسُّنَّة فى مفهوم الإمامية تمتد لتشمل أقوال وأفعال الأئمة ، يقول أحد علمائهم المعاصرين :

« السُّنَّة فى اصطلاح الفقهاء : قول النبى أو فعله أو تقريره »، ثم قال : « أما فقهاء الإمامية بالخصوص ، فلما ثبت لديهم أن المعصوم من آل البيت يجرى قوله مجرى قول النبى ، من كونه حُجَّة على العباد واجب الاتباع ، فقد توَّسعوا فى اصطلاح السُّنَّة إلى ما يشمل كل واحد من المعصومين أو فعله أو تقريره ، فكانت السُّنَّة باصطلاحهم : قول المعصوم أو فعله أو تقريره .

والسر فى ذلك أن الأئمة من آل البيت - عليهم السلام - ليسوا من قبيل الرواة

---

(١) هنرى كوربان : تاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٩٤

عن النبى والمحدِّثين عنه ، ليكون قولهم حُجَّة من جهة أنهم ثقات فى الرواية ، بل لأنهم هم المنصوبون من الله تعالى على لسان النبى لتبليغ الأحكام الواقعية ، فلا يحكون إلا عن الأحكام الواقعية عند الله تعالى كما هى ، وذلك عن طريق الإلهام كالنبى عن طريق الوحى أو من طريق التلقى من المعصوم قبله كما قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام : علمنى رسول الله ﷺ ألف باب من العلم يتفتح لى من كل باب ألف باب » (١) .

ولقد مدَّ الإمامية من وظيفة الإمام وتفويضه فى أُمور الدين والدنيا ، ولقد ذكر صاحب كتاب « الوشيعة فى نقد عقائد الشيعة » ستة معان للتفويض نشير إليها بإيجاز ، وهى تمثل تفويض الأمر للنبى ، وتوحد بين وظيفتهما ، ولم تخل من مغالاة أحياناً .

الأول : تفويض الخلق إلى الإمام ، وهذا قول يؤدى بصاحبه إلى الكفر قال به الغلاة ، لكن الشيعة بصفة عامة تنكر هذا القول .

الثانى : تفويض الدين إلى النبى والإمام ، يذكرون قولاً ينسبونه إلى جعفر الصادق ، أن الله فوَّض دينه إلى نبيه ، ثم إن نبى الله فوَّض كل ذلك إلى على وأولاده ، سلمتم ومجده الناس ، فوالله ، لنحبكم أن تقولوا إذا قلنا ، وأن تصمتوا إذا صمتنا ، ونحن فيما بينكم وبين الله ، وما جعل الله لأحد خيراً فى خلاف أمرنا .

الثالث : تفويض أُمور الخلق وأُمور الإدارة والسياسة إلى الإمام فى التأديب والتكميل وإيجاب الطاعة على الناس ، والتفويض بهذا المعنى حق ثابت دلت عليه الأخبار .

الرابع : التفويض فى البيان ، بيان العلوم والأحكام والإفتاء .

الخامس : التفويض هو التخيير فى الحكم بظاهر الشريعة ، أو بما يراه وما يلهمه الله من الواقع وخالص الحق فى كل واقعة .

---

(١) نقلاً عن كتاب أثر الإمامة فى الفقه الجعفرى ، للدكتور على أحمد السالوس ، ص ٢٧٤ .

السادس : التفويض فى الإعطاء والمنع [١] .

ولم يقف الأمر عند حد تفويض الإمام فى أمر الدين والدنيا ، بل أضاف إليه الغلاة سُلْطة كونية :

« نحن أمان لأهل الأرض ، كما أن النجوم أمان لأهل السماء ، ونحن الذين بنا تُمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، وبنا تمسك الأرض أن تميد بأهلها ، وبنا ينزل الغيث وتنشر الرحمة ، ولولا مَن فى الأرض منا لساخت الأرض بأهلها ، ولم تخل منذ خلق الله آدم من حُجَّة لله فيها ظاهر مشهور أو غائب مستور ، ولا تخلو إلى أن تقوم الساعة من حُجَّة الله ، ولولا ذلك لم يُعبد الله » [٢] .

ولا يخفى ما فى هذا القول من مغالاة ، تبعد عن الحقيقة ، وهى فى مقابل مغالاة البعض فى الأنبياء ، فهؤلاء أيضاً يغالون فى الأئمة .

وأيضاً لقد نسب غلاة الشيعة إلى الإمام المعجزات ، فقد « نسبت الشيعة إلى الإمام على الهادى المعجزات : فالسحاب يظلله ، والمطر طوع يديه . . . إلى آخر تلك المعجزات التى تعوَّد الشيعة نسبتها إلى الأئمة » [٣] .

ولقد كان طبيعياً فى هذا الجو المشحون بالمغالاة وإضافة التقديس للأئمة ، أن يكونوا مثل الأنبياء فى العصمة ، فلقد قال الإمامية - ومعهم الإسماعيلية - بعصمة الأئمة مثلهم مثل الأنبياء [٤] .

هكذا حاولت الشيعة الإمامية أن تُعلى من قدر الإمام وتُلحقه بالنبوة ، وأنه ميراث روحى للنبوة ، وإذا كانت نبوة التشريع قد انتهت بنبوة خاتم الأنبياء محمد

---

(١) موسى جار الله : الوشيعة فى نقد عقائد الشيعة ص ١٦٠ وما بعدها .

(٢) الدكتور على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام : ٢/ ٢٢٥ ، ولقد نقله عن المرتضى : البحر الزاخر : ٥/ ٣٨٠

(٣) الدكتور على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام : ٢/ ٢١٥

(٤) ابن تيمية : منهاج السُّنَّة النبوية : ١/ ٢٢٨

عليه السلام ، فإن الولاية لم تنته ، بل كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، أنها بدأت، فدورة الولاية بدأت بعد انتهاء دورة النبوة .

وفى الواقع أن موقف الشيعة الإمامية والإسماعيلية من الإمام يشبه إلى حد كبير موقف غلاة الصوفية من الولى ، فما يضيفه هؤلاء للولى يضيفه أولئك للإمام ، فكلاهما هو الولى الكامل ، وهو امتداد ميراث النبوة العامة التى لم تنقطع .

* * *

٤ - أفضلية الرسل

فى هذا المبحث سوف نشير إلى الإيمان بكل الرسل والتفاضل بينهم ، وأفضليتهم على الملائكة .

ويرى الماتريدى وجوب الإيمان بكل الرسل وإن لم تُعرف أنسابهم ، فإنه سبحانه قد ذكر الأنبياء والرسل بأسماتهم ولم يذكر أنسابهم ، وهذا يعنى أن الإيمان بهم من غير أن نعرف أنسابهم .

كذلك يصح الإيمان بالأنبياء وإن لم تُعرف أسماؤهم ، لأن مِنَ الأنبياء مَن لا يُعرف أسماؤهم ، والله تعالى يقول : ﴿ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ (١) ، وقد وجب بذلك الإيمان بالأنبياء وإن لم تُعرف أسماؤهم (٢) .

على أنه يحتمل تفضيل بعض الرسل على بعض لقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ (٣) .

فمنهم مَن كلمه الله ، ومنهم من اتخذه خليلاً ، ومنهم من سُخِّرت له الريح والطير ، ويحتمل تفضيل بعضهم على بعض فى الحجاج والحجج على القلوب ، لأن فيهم مَن كان أكثر محاجة لقومه وأعظم حججاً وهو إبراهيم عليه السلام ، ويحتمل التفضيل فى التمكين فى الأرض ، أو يحتمل التفضيل فى الآخرة فى الشفاعة ورفع الدرجات ، ويحتمل تفضيل بعضهم على بعض فى الرسالة لأن

---

(١)غافر : ٧٨ (٢) الماتريدى : تأويلات أهل السُّنَّة : ١/ ١٧٠ (٣) البقرة : ٢٥٣

منهم مَن أُرسل إلى الإنس والجن جميعاً ، ومنهم مَن أُرسل إلى الإنس خاصة ، ومنهم مَن أُرسل إلى قومه خاصة [١] .

وأيضاً ذهب المعتزلة والأشاعرة إلى جواز تفضيل الله لبعض الرسل على بعض فى الدرجات [٢] .

ويذكر الرازى أن محمداً عليه السلام هو أفضل جميع الأنبياء والرسل .

وذلك لأن الرسول هو الذى يعالج الأرواح البَشرية ، وينقلها من الاشتغال بغير الله تعالى ، إلى الاشتغال بعبادة الله تعالى ، ولما كان المراد من الرسالة والنبوة هو هذا المعنى ، فكل مَن كان صدور هذه الفوائد عنه أكثر وأكمل ، وجب القطع بأن رسالته أعظم وأكمل .

ويبنى الرازى رأيه على أساس أن الإسلام هو الرسالة الخاتمة التى اكتملت بها الرسالات ، والدعوة الخالصة إلى التوحيد والتنزيه ، وأن تأثير دعوته فى علاج القلوب المريضة أتم وأكمل وأشد تأثيراً من دعوة سائر الأنبياء [٣] .

أما بالبحث فى أفضلية الخلق على الملائكة أو الملائكة على البَشر ، فيقول الماتريدى : إننا لا نتكلم فى شئ من ذلك لما لا نعلم ذلك ، وليست لنا إلى معرفة ذلك حاجة فالأمر فيه إلى الله [٤] .

ورأى الماتريدى يخالف رأى المعتزلة فى تفضيلهم الملائكة على الأنبياء [٥] .

وأيضاً يخالف رأى الأشاعرة فى تفضيلهم الأنبياء على الملائكة [٦] .

* * *

(١) الماتريدى : تأويلات أهل السُّنَّة : ٢/٦٧ (٢) البغدادى : أصول الدين ص ١٦٤
(٣) الرازى : النبوات وما يتعلق بها ص ١٨٩ - ١٩٠
(٤) الماتريدى : تأويلات أهل السُّنَّة : ١/١٠١٨
(٥) الأشعرى : مقالات الإسلاميين : ١/٢٩٦ (٦) البغدادى : أصول الدين ص ١٦٦

٥ - ختم النبـــوة

الإنسان حيوان متدين ، ولقد تدرج العقل البَشرى فى العقائد كما تدرج فى العلوم والصناعات .

ولقد سارت الإنسانية شوطاً كبيراً فى سبيل الوصول إلى إدراك روح عام يسرى فى الوجود كله ويدبره ويوجهه ، وتعثرت الإنسانية كثيراً فى طور ارتقائها من عبادة مظاهر المادة إلى عبادة الله ، وعارض الكثير السير فى موكب التقدم واستجابوا للشهوات ونكصوا على أعقابهم يعبدون أهواءهم ممثلة فى الأصنام التى عبدوها فى طور طفولتهم .

هكذا استمر الركون إلى اللَّذات والنكوص عن التقدم الروحى ، إلى أن أرسل الله تعالى رسلاً من السماء ، بعثهم إلى أقوامهم من بنى جنسهم ليُخلِّصوا أبناء جنسهم وزمانهم من براثن الجهل والانقياد للمادة ، وليأخذوا بأيديهم إلى الكمال الروحى .

ولقد كان كل رسول منهم صورة مجسَّمة للكمال الروحى الذى يحتاج إليه أهل زمانه ، ورسولاً إلى قومه وأُمَّته ليطهرهم وينتشلهم من وهدة الفساد إلى أوج الإصلاح .

ولقد أكد الإمام محمد عبده هذا المعنى ، وذكر تطور الوعى الدينى عند الإنسان واكتماله بالإسلام ، فذكر أن الأديان ترقى بترقى الإنسان ، فجاءت الأديان والإنسان فى طور الطفولة لم ينفث فى روعه ما يعطفه على بنى جنسه ، بل كان يحرص على ما يقيم بناء شخصه ، فلم يكن من حكمة الأديان أن تخاطب الناس بما يلطف الوجدان ، بل كان من عظيم الرحمة أن يسير بهم فى سذاجة السن لا يأتيهم إلا من قبل ما يحسونه بسمعهم وبصرهم ، وجاءت من الآيات ما تطرف له عيونهم وتنفعل به مشاعرهم وفرضت عليهم من العبادات ما يليق بحالهم هذه .

ثم مضت على ذلك أزمان علت فيها أقوام وارتفعت ، فجاء دين يخاطب القلوب ، فشرع للناس من الشرائع ما يوجههم نحو الملكوت الأعلى ، وسنَّ للناس

سنناً فى عبادة الله تتفق مع ما كانوا عليه وما دعاهم إليه ، وأصلح فساد النفوس وداوى أمراضها .

لكن لم تمض أجيال حتى ضعفت العزائم البَشرية عن احتماله ، فجاء الإسلام يخاطب العقل ويستصرخ الفهم واللب ، ويشركه مع العواطف والإحساس فى إرشاده إلى سعادته الدنيوية والأخروية [١] .

فالإسلام جاء متمماً لما سبقه من أديان : « فإذا كانت رسالة المسيحية أنها أول دين أقام العبادة على الضمير الإنسانى ، وبشّر الناس برحمة السماء ، فرسالة الإسلام التى لا التباس فيها أنها أول دين تمم الفكرة الإلَهية وصححها مما عرض لها فى أطوار الديانات الغابرة .

فالفكرة الإلَهية فى الإسلام « فكرة تامة » لا يتغلب فيها جانب على جانب ، ولا يسمح بعارض من عوارض الشرك والمشابهة ، ولا تجعل لله مثيلاً فى الحس ولا فى الضمير . . . بل له ﴿ الْمَثَلُ الأَعْلَى ﴾ [٢] و ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىءٌ ﴾ [٣] .

فالله وحده ﴿ لا شَرِيكَ لَهُ ﴾ [٤] ؛ ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ ﴾[٥]، ﴿ فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [٦] .

والمسلمون هم الذين يقولون : ﴿ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللهِ ﴾ [٧] ، ﴿ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً ﴾ [٨] .

ومجمل ما يقال فى عقيدة الذات الإلَهية التى جاء بها الإسلام أن الذات الإلَهية غاية ما يتصوره العقل البشرى من الكمال فى أشرف الصفات [٩] .

ولقد سبق أن تحدثنا عن مضمون الرسالة ، وأنها تكون نسقاً متكاملاً تمد الإنسان بما ينبغى أن يكون عليه فى عقيدته ، وشرعت له من الأحكام والشرائع

---

(١) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده : ٣/ ٤٤٨ - ٤٥١ (٢) النحل : ٦٠
(٣) الشورى : ١١ (٤) الأنعام : ١٦٣ (٥) الإسراء : ١١١
(٦) الأعراف : ١٩٠ (٧) يوسف : ٣٨ (٨) الجن : ٢
(٩) عباس محمود العقاد : الله . . كتاب فى نشأة العقيدة الإلَهية ص ١٥٢ - ١٥٧

والعبادات ، وأوضحت له مبادئ وقوانين ، لتكتمل بها سعادته فى الحياة الدنيا والآخرة .

ولا شك أن الرسالة الخاتمة جاءت مخاطبة للعقل البَشرى ، دافعة له للبحث والنظر ، لاستنباط ما هو ملائم لحياته ونظامها من تلك المبادئ العامة التى أرستها تلك الرسالة .

أى أن الإنسان لم يعد بحاجة إلى رسالة جديدة ، بل عليه أن يُطوِّر فهمه ، وأن يستخدم عقله ويعمق إدراكه ، لكى يستطيع أن يفهم تلك الرسالة الخاتمة .

وهناك أدلة سمعية عديدة من القرآن والسُّنَّة على ختم النبوة ، وأن رسالة محمد هى آخر الرسالات ، لكننا آثرنا أن نكتفى بالدليل العقلى على اختتام النبوة بتلك الرسالة الجامعة الشاملة ، وقد سبق لنا الحديث - من خلال هذا البحث - عن أن هذه الرسالة هى المعجزة الخالدة ، وأنها بما تحويه من وجوه الإعجاز دليل على صدق النبوة وأيضاً دليل على اختتامها ؛ فهى النبوة الأخيرة الباقية لبقاء وخلود معجزاتها ، إذ يتحد فيها الدليل والمدلول وهو خالد باق .

لقد جاء القرآن الكريم يربى الإنسان خليفة الله فى الأرض ، يربيه قلباً وروحاً، فيربيه خُلُقاً وسلوكاً ، ويربيه جسداً وعقلاً ، ويرتفع به إلى الأفق الأعلى أفق الإنسانية أخذاً بيده ، حتى يحيله فى النهاية صورة حية من تصورات القرآن للإنسان الكامل ، ويصنع منه طاقة كونية فعَّالة مهيمنة على الكون ومسخرة له كما أراد خالقه .

إن القرآن دستور للحياة الفردية والجَماعية فى كل نواحيها الاجتماعية والسياسية والفكرية والروحية ، وتصدر عنه التشريعات جميعاً ، وقائداً يُوجِّهها إذا بعدت ويُبصِّرها إذا أخطأت ، ويأخذ بيدها بعيداً عن وعورة الحياة ومزالق الطريق [1] .

وخلاصة القول : إن الإسلام مستوفٍ لجميع الأسباب التى من أجلها يُرسَل

---

(١) الدكتور محمد ظفر الله خان : الإسلام والإنسان المعاصر ، ترجمة الدكتور محمد جلال شرف ص ٢٩٣

الأنبياء والمرسلين ، وإن قيل : إن الأُمَّة فسدت فالعمل على إصلاحها يحتاج إلى بعثة نبى جديد ، يكون الرد إنه : هل بُعث نبى فى الدنيا لمجرد الإصلاح حتى يُبعث فى هذا الزمان لمجرد هذا الغرض .

وللعلامة المودودى رأى سديد فى الرد على هذا السؤال : « إن النبى لا يُبعث إلا ليُوحَى إليه ، ولا تكون الحاجة إلى الوحى إلا لتبليغ رسالة جديدة أو إكمال رسالة متقدمة أو لتطهيرها من شوائب التخريب والتبديل ، فلما قد قضيت كل هذه الحاجات إلى الوحى بحفظ القرآن وسُنَّة محمد ﷺ ، وإكمال الدين على يده صلى الله عليه وسلم ، فلم تبق الحاجة الآن إلى الأنبياء وإنما هى إلى المصلحين » (١) .

ولقد تبلورت فى رسالة الإسلام ثلاثة اتجاهات رئيسية ، جعلته ديناً عالمياً وديناً خاتماً ، فلقد كتب أحد الباحثين المعاصرين يصوِّر هذا المعنى . فيقول : « تتبلور الرسالة العالمية للنبى ﷺ فى ناحيتين ، أو بالأحرى فى ثلاثة اتجاهات .

فهو - أولاً - المبعوث إلى كل أُمم العالَم لهدايتهم ، وهذا فى الواقع إشارة صريحة إلى الفكرة الجلية ، فكرة وحدة الإنسانية (البَشرية) التى أسس عليها دينه (الإسلام) ومن ثَمَّ كان الأمر الذى وجه إليه : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ (٢) .

---

(١) الدكتورة آمنة محمد نصير : أضواء وحقائق على البابية والبهائية والقاديانية ص ٨٣ ، أكد القرآن فى أكثر من موضع على ختم النبوة وانقطاع الرسالة ، وسوف نورد آية واحدة على سبيل المثال ، لأننا ذكرنا أننا سوف نكتفى بالأدلة العقلية على ختم النبوة ، ولن نذكر الأدلة السمعية ، ولقد أردنا فقط أن نورد مثالاً لتلك الأدلة السمعية .

يقول الله تعالى مؤكداً ختم النبوة وانقطاع الرسالة برسالة محمد ﷺ : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ (الأحزاب : ٤٠) ، وأيضاً من أقواله عليه السلام فى ذلك على سبيل المثال قوله : « إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » .

(٢) الأعراف : ١٥٨

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

وينتج من تلك الفكرة الرئيسية ذاتها أنه الهادى على طول الزمن ، ومن ثَمَّ كان إخباره بأن الدين قد اكتمل بظهوره ، وأنه لن يظهر بعده نبى .

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً ﴾ (٢) .

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيماً ﴾ (٣) .

وهو - ثانياً - مرسَل برسالة مسدِّدة إلى هدف عام هو الجبلة البَشرية لترقى فى عمومها ، وإلى الاستعدادات العقلية المختلفة لهذه البَشرية من أجل التهذيب ، ولم يكن هناك طور من أطوار الحياة البَشرية دون أن يزوِّده - صلى الله عليه وسلم - بالهداية والإرشاد ، وفى حياته الشخصية تبلجت كل أطوار النشاط البَشرى فى عرض كامل (٤) .

فى هذه الإشارات السابقة ما يؤكد أن الإسلام قد استوفى شروط الرسالة الخاتمة ، وجاء مواكباً للنضج العقلى للبَشرية ، حيث فى استطاعة العقل البَشرى أن يستنبط من تلك الرسالة ما يلائمه فى كل زمان ومكان .

ولعل فى مخاطبة الإسلام للعقل واعتماده على ذلك ، ما يشير إلى اختتام الرسالات بحيث لم يعد الإنسان فى حاجة إلى رسالة جديدة ، بل فى حاجة إلى تعميق فهمه وإدراكه لتلك الرسالة الخاتمة التى وضعت المبادئ العامة التى على العقل أن يعيها ويستنبط منها .

وأنها تؤكد على مسئولية الإنسان فى الفهم والإدراك ، بحيث يضع لنفسه ما يلائم حياته وينظمها ، ويوجهها إلى الخير لأسمى ، فى إطار المبادئ العامة التى

---

(١) الأنبياء: ١٠٧ (٢) المائدة : ٣ (٣) الأحزاب : ٤٠

(٤) محمد على : الفكر الخوالد للنبى محمد ص ١٧٦

وضعها الإسلام ، وعلى الإنسان أن يجتهد ويستخلص منها ما يصلح لمتطلباته المتجددة المتطورة ، ومما يؤكد ذلك أن التفكير فرض عَيْن على المسلم لا فرض كفاية .

إن الإسلام قد وضع المنهج والإطار والمبدأ ، وترك للناس أن يصوغوا حياتهم وفقاً لذلك المنهج والإطار والمبدأ ، وبعبارة موجزة : يكون الإنسان هو المشرِّع والمشرَّع له على أن يكون ذلك التشريع فى إطار المبادئ العامة التى حددها الإسلام .

وليس من المتصوَّر أن تتوالى الشرائع والنبوات إلى ما لا نهاية ، بحيث تكون هناك نبوات لا حصر لها ، تُشرِّع لكل ما يستجد ، وما هو جديد لا حصر له .

إذن فمن المعقول والمقبول فى التصور ، أن تكون هناك رسالة ونبوة خاتمة ، تحوى إطاراً عاماً ومنهجاً ومبادىء عامة ، يمكنان للإنسان - عن طريق العقل والنظر- أن يستوعب عن طريقهما كل ما يستجد لديه ، وبذا تكون هناك رسالة خاتمة تضع ذلك المنهج وتدع للإنسان عن طريق عقله وضع المضمون المتغير وفقاً لذلك المنهج .

وأيضاً لا يمكن أن نتصور أن تظل البشرية فى سذاجتها الأولى ، وأن تظل تلك السذاجة مواكبة لها طوال حياتها ، وأن تكون حاجتها إلى توالى النبوات دائمة ولا نهاية لتعاقب تلك النبوات .

إن ذلك التصور هو غير صحيح وبعيد عن الصواب ، إذ ذلك مناف لطبيعة ترقى العقل البَشرى ووصوله إلى مرحلة النضج وتكامل ذلك الترقى ، بحيث يصل العقل البشرى إلى مرحلة تكامل الوعى .

ولعل فى رحلة العقل البشرى فى العقيدة وتطويرها ، إلى أن وصلت أعلى مراحلها وأكملها وأتمها فى الإسلام ، ما يؤكد على ختم النبوة .

كل ذلك يؤكد على ضرورة ختم النبوة ، وأن الإسلام هو خاتم النبوات ، ولقد اكتملت فيه كل عناصر الختم المطلوبة ، وهى المبادىء العامة التى تصلح للتطبيق

فى كل زمان ومكان عن طريق الفهم والاستنباط العقلى من تلك المبادىء العامة .

وعلى الرغم من كل تلك الدلائل على اختتام النبوة ، فلقد ادعى البعض النبوة ، وعبر التاريخ ، وقد جسر بعض الأدعياء على ادعاء النبوة ، وهذا ما سوف نتناوله فيما يلى . .

* * *

٦ - المتنبئـون

المتنبئون أولئك الذين ادَّعوا النبوة وهم كاذبون فى ادعائهم ، وهم قد أساءوا فهم النبوة واجترأوا على نسبتها إلى أنفسهم ، فظهر كذبهم وافتراءاتهم وادعاءاتهم الباطلة .

وفيما يلى سوف نحاول أن نعرض لأولئك المتنبئين ، لكن علينا قبل أن نعرض لنماذج منهم ، أن نشير على وجه الإجمال إلى الأسس والأسباب التى دفعتهم إلى هذه الادعاءات ، والتى أقل ما يقال فى إثبات كذبها أن أصحابها المرددين لها هم أكثر الناس علماً بكذبها ، فضلاً عن أن هذه الدعاوى تحمل تهافتها فى نفسها ، وتحمل دليل كذبها ، وسوف نرى صدق ذلك عند عرض نماذج لها قديماً وحديثاً .

وأول هذه الدوافع التى دفعت هؤلاء إلى الادعاء الكاذب للنبوة هو سوء فهمهم لها ، فظنوها نوعاً من السُلْطة والمُلكْ ، لا طريقاً موصِّلاً إلى الله ، ورسالة إلهية إلى البَشر عن طريق الرسل يتحمل أعباء أدائها نخبة من البَشر هم الأنبياء الذين اختارهم الله .

ولعل ما يؤكد ذلك كتاب أبو ثمامة حرَّان بن حبيب - المشهور بمسيلمة - إلى النبى صلى الله عليه وسلم، يقول فيه: « من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله .

سلام عليك ، أما بعد . . فإنى قد أُشركت فى الأمر معك ، وأن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ، ولكن قريشاً يعتدون » .

ويدل جواب محمد ﷺ على صفاء سريرته ، إذ يقول فى جوابه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب .

« السلام على مَن اتبع الهدى ، أما بعد . . فإن الأرض لله يورثها مَن يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين » (١) .

ويبدو من خطاب مسيلمة منذ الوهلة الأولى الدافع إلى ادعائه للنبوة ، وأنه لا ينكر نبوة محمد عليه السلام ، بل يريد أن يكون ملكاً .

ولقد لعبت فكرة المهدى المنتظر وراء ادعاء بعض غلاة الشيعة والإمامية للنبوة ، وكذلك البابية والبهائية والقاديانية ، وسوف نعرض لآرائهم فيما بعد .

ولقد انتشرت فكرة المهدى المنتظر بين المسلمين ، وانتشرت أولاً بين طائفة الشيعة من العلويين والعباسيين ، فالعلويون يزعمونه منهم ، والعباسيون يزعمونه منهم حين آل الأمر إليهم ، ولهم فيه أحاديث مروية عن النبى ﷺ ، وقد استوفى ابن خلدون فى مقدمته الكلام عليها ، وأثبت فيها ضعف أسانيدها ، ولكنها مع هذا اشتهرت بين جمهور العامة ، حتى تناقلوا فيما بينهم أنه لا بد فى آخر الزمان من ظهور رجل من آل البيت يؤيد الدين ويظهر العدل ، ويتبعه المسلمون ، ويستولى على الممالك الإسلامية ، ويسمى بالمهدى ، ويكون خروج الدجال وما بعده من أشراط الساعة على أثره ، ثم ينزل عيسى عليه السلام من بعده فيقتل الدجال ، وقيل : إنه ينزل معه ويساعده على قتله ، ويأتم به فى صلاته ، وذكروا أن اسمه يوافق اسم النبى ﷺ ، وأن اسم أبيه يوفق اسم أبيه (٢) .

ولقد انتقلت فكرة المهدى المنتظر إلى المسلمين من اليهود الذين يعتقدون أن النبى إيليا الذى رفع إلى السماء لا بد أن يعود إلى الأرض فى آخر الزمان لإقامة

---

(١) نقلاً عن كتاب سيد أمير على : روح الإسلام ، ترجمة أمين محمود الشريف : ٢٠٢/١ - ٢٠٣

(٢) عبد المتعال الصعيدى : المجددون فى الإسلام ص ٥٨٦

دائم الحق ، ويقرر « جولد زيهر » أن المصدر الخارجى يرجع إلى أصول وعناصر يهودية ومسيحية فيقول : « ترجع الفكرة المهدية فى أصلها إلى العناصر اليهودية والمسيحية » .

ويدعم المستشرق « ڤان ڤلوتن » فى كتابه « السيادة العربية » كلام « جولد زيهر » ، حيث يربط نظرية المهدية بالإسرائيليات ، ويردها إلى أصول يهودية مسيحية .

ويؤكد الدكتور النشار هذا الاتجاه ، ويذكر أن فكرة المهدى المنتظر ترجع إلى أفكار يهودية جاء بها عبد الله بن سبأ اليهودى ، حيث إن كلمة المهدى عندهم توازن المسيح ، والمسيح فكرة أنتجها العقل اليهودى ، وهى تعنى ملاذاً ومُخلِّصاً يظهر لإنقاذ البَشر ، وما زال اليهود يتطلعون إلى ظهوره لأنهم يؤمنون بأن إيليا رُفِع إلى السماء وسيعود . وأثَّرت هذه الفكرة فى المسيحية حتى قالت بظهور المسيح وخلوده وبعثته ، ثم يتساءل الدكتور النشار : « أم أن المهدى هو « ساوسخايانت » المهدى الزرادشتى مختلطاً بعناصر يهودية ومسيحية » (١) .

ولقد استغل مدَّعى النبوة فكرة المهدى المنتظر لتدعيم دعواهم للنبوة ، ورواج تلك الفكرة عند العامة ، وعلى كل فإن فكرة المهدى المنتظر لها ما يؤيدها ، ولها أيضاً ما يعارضها من الأقوال المنسوبة إلى النبى عليه السلام ، ومهما يكن الخلاف فى ذلك ، فإن الرأى الراجح أن هذه الأحاديث الواردة بخصوص ظهور المهدى فى آخر الزمان فيها أحاديث آحاد ، ولا تثبت عقيدة وهى مع هذا تحتمل التأويل ، وأنه لا يكفر المسلم بإنكار ظهور المهدى أو نزول عيسى عليه السلام .

والذى يهمنا هو استغلال غلاة الشيعة - ومَن والاهم فى العصور الحديثة - لهذه الفكرة.

---

(١) الدكتورة آمنة نصير : أضواء وحقائق على البابية والبهائية والقاديانية ص ٢١ ، ٢٢ ، والدكتور على سامى النشار : نشأة الفكر الفلسفى : ٢/٣٠٢

وثالث الأفكار التى راجت بين مدَّعى النبوة وروَّجوا لها لمساندة ادعائهم هى فكرة الحلول .

وهذه الفكرة تقوم على حلول جزء إلَهى فى البَشر ، وهى فكرة قديمة ، نجدها لدى المصريين القدماء ولدى أصحاب الفكر الشرقى القديم أمثال البراهمة ، ونجدها فى الفلسفة اليونانية عند الرواقية ، ونجدها فى المسيحية فى النقاش الطويل حول طبيعة المسيح ، لاهوته وناسوته ، وكيف حلَّ اللاهوت فى الناسوت ، ونجدها عند غلاة الصوفية وغلاة الشيعة ، وليس بوسعنا أن نعرض لكل ذلك ، بل يكفى مجرد الإشارة إليه ، والمهم هو أن هذه الفكرة قد استغلها مدَّعى النبوة .

كذلك التناسخ ، وهو انتقال الروح من جسد إلى آخر وأيضاً هذه فكرة قديمة ، وقد انتقلت إلى غلاة الشيعة ، يقول ابن خلدون : « ومنهم مَن يقول : إن كمال الإمام لا يكون لغيره ، فإذا مات انتقلت روحه إلى إمام آخر ليكون فيه ذلك الكمال وهو قول بالتناسخ » (١) .

خلاصة القول : إنه كانت هناك أفكار غريبة وراء أفكار الغلاة من الشيعة والذين ادَّعوا النبوة ، وأيضاً من ينتمى إليهم من العصور الحديثة ، وسوف نورد فيما يلى نماذج من أولئك المدَّعين .

وسوف نقسم الحديث عن هؤلاء إلى قسمين : الأول يتناول غلاة الشيعة ، والقسم الثانى يتناول البابية والبهائية والقاديانية .

أولاً : غلاة الشيعة والإمامية

سنعرض فيما يلى لنماذج من غلاة الشيعة ومن الإمامية الرافضة ، والذين ادَّعوا النبوة ، بل لم يكتف البعض منهم بادعاء النبوة ، بل جاوز ذلك وادَّعى الألوهية ، وسوف نرى كيف لعبت الأفكار التى سبق ذكرها وهى : المهدى المنتظر - الحلول - التناسخ ، وغيرها من الأفكار الغريبة، دوراً هاماً فى تشكيل فكرهم الذى سوف

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ١٧٧

نتبين من خلال عرضنا لنماذج منه مدى فساد ذلك الفكر ، وسوف لا نكتفى بذكر تلك الآراء بل سوف نعقب عليها .

١ - الغرابية :

من الفرق التى أوجبت النبوة بعد النبى محمد ﷺ ، فرقة الغرابية وقولهم إن محمداً ﷺ كان أشبه بعلى من الغراب بالغراب ، وإن الله بعث جبريل عليه السلام بالوحى إلى علىّ فغلط جبريل بمحمد ، ولا لوم على جبريل فى ذلك لأنه غلط ، وقالت طائفة منهم : بل تعمد ذلك جبريل وكفَّروه ولعنوه (١) .

ولا يخفى ما فى هذا القول من كفر صريح ومنافاة للعقل والحس ، فكيف يتسنى جواز الخطأ فيمن يرسله الله ، بل كيف تصل التعمية وعدم التمييز بين النبى وعلىّ ، وهما مختلفان فى صفاتهما الحسية ، وكيف يمتد الخطأ طوال بعثة النبى وحتى مماته ، وهم وإن أقروا بنبوة محمد إلا أنهم يثبتون شركة علىّ فى النبوة .

❊ ❊

٢ - المغيرة بن سعيد :

من الغلاة فرقة قالت بنبوة المغيرة بن سعيد ، وهو الذي أحرقه خالد بن عبد الله القسرى بالنار ، وكان يردد قول المجوس بالفكرة الردية التى حدث منها الشيطان ، وأيضاً كان يقول بعدم اختلاف الأنبياء فى الشرائع ، وكانت آراؤه فى مجملها كما ذكر « فريدلندر » ترجع فى أصولها إلى مزيج عجيب للديانات الشرقية القديمة ، ويدل فى جلاء على أنه كان متأثراً بالغنوسطية ، وخاصة المانوية والماندية - وقد كان المانويون كثيرون فى العراق ، ويقال : إنه كان لهم زمن العباسيين أربعمائة معبد ، وأن رأسهم يقطن فى بغداد (٢) .

---

(١) ابن حزم : الفصل فى الملل والنحل : ٤/١٨٣

(٢) الدكتور محمد جابر عبد العال : حركات الشيعة المتطرفين ص ٣٩

وقد قال المغيرة برجعة الأموات فى الدنيا ، ويُعَد من أوائل الذين فسَّروا كلمات القرآن تفسيراً خاصاً بما يوافق هواه ، وجعل كلمات القرآن تشير إلى الرجال كأبى بكر وعمر ، ولقد استغلت هذه الفكرة فيما بعد أسوأ استغلال عند غلاة الشيعة وغيرهم من المتطرفين (١) .

❊ ❊

٣ – البيانية :

ومنهم أيضاً فرقة البيانية ، أصحاب بيان بن سمعان التميمى ، وهم يقولون : إن الله عَزَّ وجَلَّ على صورة الإنسان ، وحكى عنهم أن كثيراً منهم يُثبت لبيان ابن سمعان النبوة ، ولقد فسَّر « بيان » القرآن (٢) .

ولقد قال « بيان » بحلول جزئى إلَهى فى علىّ ، وأن هذا الجزء الإلَهى قد انتقل إليه بنوع من التناسخ ، ولذلك استحق أن يكون إماماً وخليفة (٣) .

وعلى هذا فهو يقول بالتناسخ وبالتجسيد ، وهى أفكار غريبة عن الإسلام ، علاوة على استخدامه للسحر للتأثير على عامة الناس ، ولقد كان السحر وسيلة لهؤلاء الأدعياء ، حتى يتمكنوا من التأثير على العامة والدهماء من الناس .

❊ ❊

٤ – أبو منصور العجلى :

ومنهم فرقة قالت بنبوة أبو منصور العجلى ، ولقد قال أبو منصور : إن آل محمد هم السماء ، والشيعة هم الأرض ، وأنه هو الكسف الساقط من بنى هاشم ، وزعم أنه عُرِج به إلى السماء، فمسح معبوده على رأسه بيده، ثم قال:

---

(١) انظر نماذج من تفسيراته فى كتاب « مقالات الإسلاميين » للأشعرى : ١/ ٧٢ – ٧٣

(٢) الأشعرى : مقالات الإسلاميين : ١/ ٦٧

(٣) ابن حزم : الفصل فى الملل والنحل : ٤/ ١٨٥

أى بنى ؛ اذهب فبلِّغ عنى ، ثم نزل به إلى الأرض ، وزعم أن رسل الله سبحانه لا تنقطع أبداً ، وكفر بالجنة والنار ، واستحلَّ النساء والمحارم ، وقال أصحابه : إن الله لم يُحرِّمهن علينا ، وأسقط الفرائض [١] .

ومن هذا يتبين ادعاؤه للنبوة ، وكذب هذا الادعاء ، فهو يحل المحرَّمات ، ويستحل دماء الآخرين وأموالهم وخنقهم ، وألزم أصحابه خنق مخالفيهم وقتلهم خفية ، وأن القضاء على مخالفيهم فى العقيدة إنما هو من شعائر دينهم .

ولقد قال النوبختى : « وكان يأمر أصحابه (أى أبو منصور) بخنق مَن خالفهم وقتلهم بالاغتيال ، ويقول : مَن خالفكم فهو كافر مشرك فاقتلوه فإن هذا جهاد خفى » ، ولقد ذكر ذلك أيضاً ابن حزم وأكده عن كتاب لهشام بن الحكم [٢] .

ولا شك أن هذه الوسيلة تثير الفزع والرعب فى قلوب الناس ، وتؤدى إلى قتلهم بلا ذنب ولا جريرة ، ولقد آمن أتباعه بعقيدة الخنق إيماناً قوياً وجعلوه عقيدة دينية وجهاداً فى الدين .

❊ ❊

٥ - الكيسانية :

هم أتباع مختار بن أبى عبيد الثقفى - وهم يقولون بإمامة محمد ابن الحنفية ، وإن اختلفوا فى سبب إمامته .

ويجمعهم القول بتجويز البداء على الله تعالى ، والبداء له معان : البداء فى العلم ، وهو أن يظهر له خلاف ما علم ، والبداء فى الإرادة ، وهو أن يظهر له صواب على خلاف ما أراد ، والبداء فى الأمر وهو أن يأمر بشئ ثم يأمر بعده بخلاف ذلك .

---

(١) الأشعرى : مقالات الإسلاميين : ١/ ٧٥ ، ابن الجوزى : تلبيس إبليس ص ٩٨

(٢) ابن حزم : الفصل فى الملل والنحل : ٤/ ١٨٥ ، النوبختى : فرق الشيعة ص ٣٥

وسبب قول المختار بالبداء ، هو ادعائه بحدوث أشياء فى المستقبل ، ثم لا تحدث تلك الأشياء ، فقوله بالبداء يبرر ذلك ، ويقول لأصحابه : هكذا وعدنى الله ثم بدا له ، فإنه مغالى ، قال : ﴿ يَمْحوُ اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ، وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ (١) ، (٢) .

والمختار بهذا يخلط بين البداء والنسخ ، والآية التى ذكرها تفيد النسخ ولا تفيد البداء .

ولقد ادَّعى المختار النبوة عند خواصه من الأصحاب ، فيذكر البغدادى أن السبئية قد خدعت المختار ، وقالوا له : أنت حُجَّة هذا الزمان ، وحملوه على دعوى النبوة ، فادعاها عند خواصه ، وزعم أن الوحى ينزل عليه ، ونظم فى ذلك قولاً مسجوعاً ، ولقد أورد البغدادى الكثير من أسجاعه (٣) .

ولكل هذه الأقوال والضلالات والتأويلات الفاسدة وادعاء النبوة تبرأ منه محمد ابن الحنفية .

❊ ❊

٦ - الباقرية :

هؤلاء قوم ساقوا الإمامة من علىّ بن أبى طالب فى أولاده إلى محمد بن على المعروف بالباقر .

وقالوا : إن علياً نص على إمامة ابنه الحسن ، ونص الحسن على إمامة أخيه الحسين ، ونص الحسين على إمامة ابنه علىّ بن الحسين زين العابدين ، ونص زين العابدين على إمامة محمد بن على المعروف بالباقر ، وقد زعموا أنه حى لم يمت لكنه غائب وأنه المهدى المنتظر (٤) .

وبعد .. فهذه نماذج أوردناها لمدَّعى النبوة ، وتكاد تنحصر تلك الدعاوى فى

---

(١) الرعد : ٣٩

(٢) الأشعرى : مقالات الإسلاميين : ١/ ٩١ ، الإسفراييني : التبصير ص ١٨ - ٢٠ ، البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٣٨ ، الشهرستانى : الملل والنحل : ١/ ١٩٧٥

(٣) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٤٦ (٤) المرجع السابق ص ٥٩

محيط غلاة الشيعة الإمامية ، تحت تأثير أفكار غريبة عن العقيدة حاولوا أن يروِّجوها ، وهذه الأفكار تتناسب مع قولهم فى الإمامة وأنها نوع من الإرث الإلَهى .

وعلى كل ؛ فإن هذه الأفكار التى دعا إليها هؤلاء لم تكن نبتاً عربياً ، حتى قبل الإسلام ، فالرجعة والنور الإلَهى للائمة ، وفكرة التناسخ هى أفكار يهودية وفارسية وهندية قديمة (١) .

ولقد تفرَّع من هذه العقائد الفاسدة ، دعوات فى العصر الحديث يدَّعى أصحابها النبوة ، وهذا ما سوف نعرض له .

* * *

ثانياً : فى العصر الحديث

١ - البابية :

مؤسس البابية هو الباب ميرزا على محمد بن ميرزا رضا البزاز ، ويقال : إن نسبه ينتهى إلى علىّ بن أبى طالب ، ولد سنة ١٢٣٥ هـ (١٨١٩ م) فى مدينة شيراز ، ومات أبوه قبل فطامه ، فقام بتربيته خاله ميرزا سيد على وكان يشتغل بالتجارة ، فتعلم الفارسية والعربية ، واشتغل بالتجارة ، ولقد كان يأخذ نفسه بالرياضات الصوفية الشاقة ، وكانت تعتريه من ذلك نوبات عصبية ، حتى ضعف وانحطت قواه ، وأرسله إلى النجف وكربلاء لعله ينال الشفاء ، لأن فيها مشهد علىّ بن أبى طالب وابنه الحسين ، وأهل فارس من الشيعة الإمامية ، وهم يقدسون تلك المشاهد .

واتصل فى كربلاء بالسيد كاظم الرشتى ، الذى تلقى عليه بعض الدروس فى التصوف وغيره ، وكان ميرزا على محمد يحضر تلك الدروس وهو فى حالة ذهول ، وكان ينطق بعبارات من عبارات الصوفية ، وأنكر عليه بعض أصحابه ذلك

---

(١) انظر كتابنا : « الفكر الدينى الشرقى القديم » : ٢/ ٧٧ - ١٠٩

انقطع فى بيته عن الدرس ، وأظهر الزهد ، ومال إليه بعض العامة ، ثم ذكر لأصحابه أن الوصول إلى الله تعالى لا يكون إلا عن طريق النبوة والرسالة ، ولما كان ذلك أمراً صعباً احتاج الأمر إلى واسطة ، ثم أخذ يدَّعى أنه الواسطة ، وأنه كما لا يجوز دخول البيت من غير باب ، لا يجوز الوصول إلى هذا من غير باب، وأنه هو الباب الذى يوصل إليه ، فسمى نفسه الباب واشتهر أتباعه بالبابية (١) .

ولم يكن الباب فى أوائل أمره يتجاوز القول بأنه الباب إلى الإمام المنتظر ، أقر بذلك البابيون فقال مؤرخهم عبد الحسين أوراه : « كان المفهوم لدى العموم من لفظ الباب فى أوائل قيام حضرته أنه الواسطة بين حُجَّة الله والمنتظَر بين الخلق » .

وقالها عباس أفندى عبد البهاء وخليفته « وفهم من كلامه أنه يدعى وساطة الفيض من حضرة صاحب الزمان ، المهدى عليه السلام » .

لكنه بإيعاز من كبار أصحابه ، تدرج من هذه الرتبة إلى القول بأنه المهدى نفسه بالحلول الجسمانى .

ولقد عارضه العلماء وعدُّوا قوله كفراً صريحاً وتطاولاً على الأئمة ، فأُمِرَ به وضُرِب واقتيد إلى السجن ، ولكنه أعلن توبته على رؤوس الأشهاد يوم الجمعة وأُطلق سراحه (٢) .

وبذلك نجا الباب من القتل ، ولكنه ما لبث أن عاود دعوته فى (١٨٤٥) ، وطلب إلى أعوانه نشر الدعوة ، وفى (١٨٤٧) أمر الشاه باعتقال الباب ، ثم بعد مناظرة العلماء له تم إعدامه فى (يوليو ١٨٤٩) .

والذى يهمنا الإشارة إليه بإيجاز هو شريعة الباب ، والتى أودعها كتابه « البيان » وهى خليط من شتَّى صنوف العقائد والنِحَل ، كالباطنية والمجوسية والزرادشتية والمزدكية والهندية ، وتحمل الأفكار الغريبة التى سبق ذكرها كالمهدى المنتظر والحلول والتناسخ .

---

(١) عبد المتعال الصعيدى : المجددون فى الإسلام ص ٤٩٦ - ٤٩٧

(٢) الدكتورة عائشة عبد الرحمن : قراءة فى وثائق البهائية ص ٣٩ - ٤٢

وسوف نحاول أن نشير بإيجاز إلى بعض ملامح تعاليمه بالإشارة إلى نماذج منها :

فلقد زعم الباب أن الحقيقة الروحية المنبعثة من الله قد حلَّت فى شخصه حلولاً مادياً وجسمانياً ، وكان هو المظهر الأول لها من لدن آدم إلى محمد ﷺ ، ثم انتقلت الروح الإلَهية من بعد محمد إلى علىّ ، ثم إلى مَن يظهر مِن بعد مَن يظهره الله إلى آخر الذى لا آخر له ، مثل الأول الذى لا أول له .

وكان الباب محلاً لظهور الروح الإلَهية فى تنقلها من شخص إلى شخص أبد الدهر .

يقول الباب : « كنت فى يوم نوح نوحاً ، وفى يوم إبراهيم إبراهيم ، وفى يوم موسى موسى ، وفى يوم عيسى عيسى ، وفى يوم محمد محمداً ، وفى يوم علىّ علياً ، ولأكونن فى يوم مَن يُظهره الله : مَن يُظهره ، وفى يوم مَن يظهر بعده : مَن يظهره الله ، إلى آخر الذى لا آخر له قبل الذى لا أول له ، كنت فى كل ظهور حُجَّة على العالمين » (١) .

ويبدو فى هذا القول بالتناسخ والحلول ، وهذه الفكرة قائمة على أساس خرافى وهى الأساطير والأوهام التى لا حقيقة لها فى الواقع ، وهذا القول يؤدى إلى القول باستمرار الوحى الإلَهى والنبوة ، بمعنى أن الوحى الإلَهى لا ينقطع ولا ينتهى إلى فترة زمنية معيَّنة من فترات الخليقة ، وهذا يتعارض مع ما صرَّح به القرآن الكريم من ختم النبوة .

كما يؤدِّى القول بالتناسخ إلى إسقاط التكاليف ، حيث لا ثواب ولا عقاب، ولا جنة ولا نار .

وقول البابية بالتناسخ يؤدى القول بأبدية العالَم وخلود الكائنات ، فقالوا : إن النفوس الطيبة تتلذذ بأخلاقها ومعلوماتها ، وأن النفوس الخبيثة تتألم بملكاتها

---

(١) نقلاً عن كتاب « قراءة فى وثائق البهائية » للدكتورة عائشة عبد الرحمن ص ٤١

الرديئة وجهالاتها إلى أن تزول هذه المَلَكات عنها ، فتعود إلى عالَم الأجسام مرة ثانية ، وهو ضرب من القول بالتناسخ الذى أنكرته الشرائع السماوية ، ولا يقول به إلا عبدة الأوثان (١) .

كذلك ادَّعى الباب أنه المهدى المنتظر ، وأن شريعته التى جاءت فى كتابه «البيان» ناسخة للقرآن وأحكامه ، وأوَّلَ القرآن بما يوافق آرائه الغريبة .

ولقد اعتقد أتباعه أن الباب معصوم عصمة كبرى ، بمعنى أن عصمته ذاتية من مقتضى طبيعته ، وذلك لأنه صاحب تشريع ، وفى قولهم بمهديته وأنه يوحى إليه ما يؤدى إلى القول بعصمته .

ويقول الباب لأتباعه فى الحث على معرفة العصمة الثابتة له : « يا ملأ الأرض ؛ قدِّموا أنفسكم وطهرِّوا قلوبكم لتعرفوا بها ما سُتِر من كنائز العصمة من لدن مقدر قدير » . يقصد الباب من قوله هذا أن العصمة الثابتة له لا تعرف إلا بواسطة تطهير النفوس وتقديسها للبابيين (٢) .

وبالنسبة للعبادات التى شرعها الباب فخالف العبادات التى شرعها الإسلام ، وأحدث تغييراً فى حساب الشهور وعددها ، وأدَّى ذلك إلى تغيير ميعاد الصوم ، وجعل عيد الفطر يوافق يوم النيروز وهو العيد القومى للفُرس ، وغاير بعض أحكام الإسلام : مثل أحكام الزواج ، ومساواة الرجل والمرأة فى الميراث ، وغير ذلك من الأحكام .

ولقد كتب أحد الباحثين المعاصرين ينقد دعوة البابية ، فذكر أنها دعوة رجعية ، قام بها رجل نشأ نشأة صوفية رجعية ، ووقع مثل الصوفية فى دعاوى عريضة

---

(١) الدكتورة آمنة محمد نصير : أضواء وحقائق ص ٣٤ - ٣٥ ، وانظر كتابنا : « الفكر الشرقى القديم » ص ٣٧ - ٤١ ، لبيان موقف البراهمة من التناسخ .

(٢) الدكتورة آمنة محمد نصير : أضواء وحقائق ص ٣٥ ، عبد المتعال الصعيدى : المجددون فى الإسلام ص ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، وأيضاً عباس محمود العقاد : الإسلام فى القرن العشرين ص ١٠٥ - ١٠٩ ، وأيضاً : البهائية والقاديانية ، للدكتور اسعد السحمرانى ص ٦٥ - ٧٣

خرافية ، واستغل فيها بيئة رجعية جامدة . فقامت بعقلية جامدة رجعية تدعو إلى أمور تافهة لا قيمة لها فى قرن بلغت فيه الحضارة غايتها ، ولم تكن البيئة التى ظهرت هذه الدعوى الرجعية فيها تنقصها الفتن التى تشغلها عنها ، وتزيدها غفلة عن الإصلاح الصحيح ، والذى يقوم على الأخذ بأسباب النهضة التى قامت فى أوروبا . ولا يلتفت إلى شئ من تلك الأباطيل التى وصلت إلى حد الإباحية وعدم الإيمان بالآخرة والثواب والعقاب [1] .

وبعد . . فهذه إشارات موجزة تشير إلى دعوة البابية وادعاء الباب للنبوة ، وحاول أن يمزج فى دعوته آراء غريبة وصنوف شتىً من المعتقدات القديمة ، ليجعلها سمة خاصة لدعوته ، فجاءت تلك الأخلاط مزيجاً مشوهاً ، بل دليلاً قوياً على سقوط دعوته وكذب ادعائه .

وهذه الآراء التى قال بها فى العقيدة او العبادات إنما هى مغايرة للإسلام وإحياء للكفر ، وهذا ما دعى العلماء وأولوا الأمر أن يقاوموه ، حتى انتهى مصيره بالإعدام .

ولقد قام بالدعوة إلى البابية بعد موت ميرزا على محمد : ميرزا حسين على ، ولقب نفسه بهاء الله ، فاتبعته فرقة من البابية يقال لها « البهائية » وهى صاحبة دعوة جديدة فى البابية وسوف نتناولها فيما يلى . .

❊ ❊

٢ – البهائية :

ولد مؤسس البهائية ومنشئها الميرزا حسين على فى قرية « نورى » من قرى المازندران من إيران فى فبراير سنة ١٨١٧ (الموافق شهر المحرَّم من سنة ١٢٣٣ هـ).

ولقد ولد الميرزا فى أسرة لها علاقات وطيدة مع السفارة الروسية بطهران ، حيث كان يعمل كثير من أفراد الأسرة بالسفارة .

---

(١) عبد المتعال الصعيدى : المجددون فى الإسلام ص ٥٠٢

ولقد تلقى العلوم الشيعية والصوفية ، وكان له إلمام تام بالروايات الشيعية ، وخاصة الكتب التى تروى عن المهدى والمهدوية ، كما اطلع على كتب الصوفية والباطنية والفلاسفة القدماء ، مع أنه ادَّعى كذباً أنه لم يقرأ علماً ولم يدخل مدرسة ، مع أن الدارس لكتبه يجد فيها الكثير من المقتطفات الصوفية ، والسرقات الباطنية والمقتبسات الكلامية ، وعبارات طويلة من الكتب القديمة .

ولما أعلن الباب دعوته سارع فى اعتناقها ، وهو يطمع أن ينال من وراء ذلك منصباً لائقاً ، لكن خاب ظنه حينما لم يدخله الباب الشيرازى فى حروف الحى ، أى خاصته ورفاقه الذين يقتسمون الغنائم من بعده .

لكنه مع ذلك لم ييأس ، بل نشر حبائله وشمر عن ساقه حتى استطاع البروز فى مؤتمر « بدشت » المعروف فى تاريخ البابية ، حيث تمكن من الوصول إلى «قُرَّة العين » غانية البابيين ، واستطاع التقرب إليها ، وساعده على ذلك نضرة شبابه ووسامة وجهه وجماله ، وتأييده المطلق لها عندما اجترأت وصرَّحت فى مؤتمر « بدشت » بنسخ الإسلام ، فأيَّدها بكل قوة ، وقرأ سورة الواقعة من القرآن الكريم وفسَّرها بتفسير يؤيد ما قالته « قُرَّة العين » ، وكتب إلى الباب الشيرازى يطلب منه الفصل فى القول ، فوافقها الشيرازى على القول بنسخ الإسلام .

ولقد تأثرت « قُرَّة العين » تأثراً كبيراً بحسين علىّ بعدما لقيته إلى الحد الذى لم تكن تأمر بشئ أو تفعل فعلاً إلا بعد إذن منه .

ولقد خلعت عليه لقب « بهاء الله » ، ولقد كان له تأثير عظيم عليها فى الفساد والانحلال الخُلُقى والعقائدى .

ولقد أخذ الميرزا حسين ينتقل من بلد إلى بلد ثم رجع إلى طهران ، ولقد أودع السجن بعد مؤامرة البابيين على حياة الشاة ، لكن أُفرج عنه تحت ضغط السفارة الروسية ، ثم نفى إلى بغداد .

ولما اشتد الخلاف بينه وبين البابيين هرب إلى غار قريب من قرية « سركلو » متظاهراً بالنسك والعبادة والتصوف ، وكان يحضر مجالس الصوفية كثيراً ، وبعد

سنتين رجع إلى بغداد ثم صدر قرار إبعاده إلى « أدرنة » ، ثم قررت الحكومتين الفارسية والعثمانية نفى الميرزا حسين علىّ مع أتباعه إلى مدينة عكا ، حيث قضى بقية حياته ، ومات فى سنة ١٣٠٩ هـ ، وأوصى بالأمر من بعده إلى ابنه عباس الذى سمى نفسه « عبد البهاء » (١) .

وفى عكا دوّن البهاء مؤلفاته ، وأشهر ما كتب هو كتاب « الأقدس » ، وزعم أنه كتاب موحى به ، وأنه قد تم بقدم الذات الإلّهية ، وله كتابات أخرى ضمنها الكثير من آرائه التى تخرج عن العقيدة الإسلامية ، وله كتاب « الإيقان » الذي طبعه محفلهم المركزى فى مصر سنة ١٣٥٢ هـ ، ومن أبرز الكتب التى حفلت بفكر البهائية كتاب « الدرر البهية » ، المطبوع بمطبعة الموسوعات بالقاهرة سنة ١٣١٨ هـ لأبى الفضائل الجرفادقانى .

وبالنسبة لعقائد البهائية ، فيمكن القول فى عبارة موجزة أنها خليط من البوذية والبراهمة والوثنية ، وديانة الهنود والزارادشتية ، واليهودية والمسيحية ، ومن اعتقادات الصوفية والباطنية .

وسوف نحاول فيما يلى أن نورد بعض نماذج من تلك المعتقدات الخاطئة ، وذلك فى إيجاز .

يعتقد البهائيون أنه كلما انحطت حياة الرجال الروحانية ، وفسدت أخلاقهم يظهر رسول من أعجب الرجال وأعمقهم ، فيقوم وحده أمام جميع العالَم كرجل بصير بين رجال عمى .

ويعتقدون بعدم انقطاع الوحى والرسالة ، وأن القول بانقطاعهما بعد محمد ﷺ لا سند له فى الواقع ، وأنه لا فرق بين من يقول بهذا القول وبين مَن يقول : ﴿يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾ (٢) .

وهم مع ذلك يمنعون إتيان الرسل بعد المازندرانى إلى ألف سنة اعتماداً على

---

(١) إحسان إلهى ظهير : البهائية .. نقد وتحليل ص ٩ - ٢٨ ، الدكتورة عائشة عبد الرحمن : قراءة فى وثائق البهائية ص ٥٣ وما بعدها ، الدكتورة آمنة محمد نصير : أضواء وحقائق ص ٤٧

(٢) المائدة : ٦٤

كلامه : « مَن يدعى أمراً قبل إتمام ألف سنة كاملة فإنه كذاب مفتر . . . مَن يؤوِّل هذه الآية أو يفسرها بغير ما نزل فى الظاهر فإنه محروم من روح الله ورحمته » .

لكن للسائل أن يسأل : هل تكون يد الله مغلولة طوال هذه الفترة ، وهى ليست بالفترة القصيرة ؟

إنها إحدى أقوالهم المليئة بالغموض والتناقض وعدم الإفصاح بالقول عنها [1] .

ولقد ادَّعى الميرزا حسين على « البهاء » النبوة ونزول الوحى عليه ، فيقول : «وفى ليلة من الليالى فى عالم الرؤيا سمعت هذه الكلمة العليا من جميع الجهات : « إنَّا ننصرك بك ، وبقلبك لا تحزن عما ورد عليك ، ولا تخف إنك من الآمنين، سوف يبعث الله كنوز الأرض وهم رجال ينصرونك بك وباسمك الذى به أحيا الله أفئدة العارفين » .

ويقول أيضاً : « استمعوا من الذى يدعوكم تحت السيف إلى الله العليم الحكيم، هل الذى يدعوكم فى غمرات البلايا ينطق عن الهوى ، لا وربكم العلى الأعلى ، كذلك أشرقت عليه شمس البيان من أفق الوحى لتكون مطمئناً بفضل ربك الرحمن » .

وعلى هذا فالوحى يتنزل عليه ، فإن مثله مثل الأنبياء يتلقى من الوحى ، وأن الله أرسل إليه رسالة وكلَّفه بأدائها.

واعتقد البهائيون فى عصمة البهاء وأيضاً عبد البهاء وحفيده شوقى أفندى المسمى ولى أمر الله ، ثم جعلوا العصمة مراتب ، فهى ذاتية للبهاء لأنه صاحب تشريع ، جاء فى الأقدس : « ليس لمطلع الأمر شريك فى العصمة الكبرى ، إنه لمظهر يفعل ما يشاء فى ملكوت الإناء قد خص الله هذا المقام لنفسه (يقصد بالله البهاء)، وما قدر لأحد نصيب فى هذا الشأن العظيم المنيع » .

---

(١) إحسان إلهى : البهائية ص ١٨١ ، وسنعود إلى تفصيل ذلك الادعاء بعدم ختم النبوة والأفكار التى تقف وراء هذا الادعاء .

أما بالنسبة لعبد البهاء فإنها عصمة مكتسبة وموهوبة من البهاء ، لأنه ليس صاحب تشريع .

ولم يقف الأمر بالبهاء إلى حد ادعاء النبوة ونزول الوحى والعصمة الكبرى له ، بل تجاوز ذلك فادَّعى الألوهية والربوبية ، ولقد اعتقد فى ذلك كثير من البهائية السذج فذكروا أن البهاء ليس نبياً ، بل هو فى مرتبة الألوهية ، يقول الجلبائيجانى فى مقدمة كتابه « الفرائض » :

« إن عامة الناس يظنون بأن فى استطاعتهم هزم البهائيين ، حيث يسألون : ماذا كان دعواه ؟ (أى المازندرانى) ، فإن قيل لهم : النبوة ، يقولون : ورد فى الحديث : « لا نبى بعدى » ، وإن قيل : المهدوية ، يردون بذكر الأوصاف التى وردت فى الروايات .

ولكنهم لا يعرفون أن قائمنا (المازندرانى) يملك منصب الربوبية ، مصداق الآية : ﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ (١) ، ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً ﴾ (٢) ، فيوم ظهوره يوم الرب لا غير ، ومقام الربوبية مقام الأصالة لا النيابة والرسالة » .

وقال بهائى هندى : « إن البهائيين يعتقدون أن دور النبوة قد انتهى ، وعلى ذلك ما قالوا يوماً إنه (المازندرانى) نبى أو رسول ، بل هم يعتقدون أن ظهوره هو عَيْن ظهور الله » .

وكتب بهائى آخر يقول : « قد أذعنا وأيقنا بالوهية البهاء الحى الذى لا يزال بلا مثال وقديم الجمال » .

ولقد أورد « إحسان إلهى ظهير » فى كتابه « البهائية » الكثير من أقوالهم نقلاً عن كتبهم الأصلية .

ومن العجيب حقاً أن ينسب إلى العبد صفات الإلَه ، ولقد لاقى البهاء صنوفاً من الآلام ، ومدَّ يده إلى الآخرين طلباً للمودَّة والمعونة ، وانصرفوا عنه ، بل إنه يشكو ما لاقاه فى عكا من آلام وهموم إلى السلطان ناصر الدين شاه (شاه إيران)، فهل يُستغاث بذلك الفقير العاجز المحتاج الذى لا يستطيع نُصرة

---

(١) الأنعام : ١٥٨ (٢) الفجر : ٢٢

شخصه ، ولا مد العون إلى نفسه ، فهل ينصر الآخرين ، لا شك أن هذه الدعاوى تحمل تهافتها فى نفسها لخروجها عن كل ما هو معقول ومقبول ، ولا تحتمل التنفيذ أو الرد عليها ، إذ هى بنفسها تنطق بخطئها وبُعدها عن الحق [١] .

وبالنسبة لعقيدة البهائية فى الذات الإلَهية ، فهم يرون أنه ليس لله تعالى أسماء وصفات وأفعال ، وأن ما يضاف إليه من أسماء وصفات وأفعال هى رموز لأشخاص ممتازين عن البَشر قديماً وحديثاً هم مظاهر أمر الله ومهابط وحيه فى زعمهم وآخرهم وأكملهم هو مفسر سورة الواقعة فى مؤتمر « بدشت » ميرزا حسين المازندرانى الذى لُقِّب « بهاء الله » ، و « مظهر الله الأكمل » ، وهو الموعود ، ومجيئه الساعة الكبرى ، وقيامه القيامة ، ورسالته البعث ، والانتماء إليه الجنة ، ومخالفته النار ، وأن الديانات السابقة والأنبياء كانت مهمتهم التبشير بمجيئه [٢] .

ولقد بنى البهائية كل مظاهر العمل والعبادة على أنها أمور ظاهرية تُعبِّر عن أمر باطنى ، ولقد قالوا بناء على هذا بالتأويل ، لكن تأويلهم كان تأويلاً فاسداً ، وهو موكول إلى البهاء ، وتعسَّفوا فى تأويلهم للآية : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ ﴾ [٣] ، وقالوا : المراد البهاء .

وقالوا : بأنه ليس المراد من تأويل الآيات القرآنية ومعانيها الظاهرة ومفاهيمها اللغوية ، بل المراد المعانى الخفية التى أطلقت عليها الألفاظ على سبيل الاستعارة والتشبيه والكناية .

ولقد مرَّ بنا أن غلاة الشيعة قد قاموا بتأويل القرآن ، وأن ألفاظه وكلماته تشير إلى أشخاص ورموز ، علاوة على ذلك يمكن القول أن هذا المنهج فى التأويل قد أتاح لهم أن ينشروا عقائدهم الفاسدة بين العامة ، محتجين بأن لكل ظاهر باطن، وأن ظاهر القرآن له باطن، ولا يعلم ذلك الباطن إلا البهاء، ولا شك أن فى ذلك خروج عن كل معانى التأويل التى يقبلها العقل ويقرها العرف والاستخدام اللغوى ،

---

(١) إحسان إلهى البهائية ، نقد وتحليل : ص ٦٣ - ٩٤ فى مواضع متفرقة .

(٢) الدكتورة آمنة محمد نصير : أضواء وحقائق ص ٤٩ (٣) آل عمران : ٧

بل جاءت تأويلاتهم الرمزية لتؤيد معتقداتهم الفاسدة ، والتى تنبو عن الأفهام ، ويرفضها العقل ، ولا ستد لها فى المنطق ، ولا مثيل لها فى الواقع ، وإنما هى نسج خيال وخرافات وأوهام ، وإعادة بصورة أخرى لمرحلة الوثنية والأساطير .

وتنكر البهائية الملائكة والجن والوحى الذى جاء به جبريل وبلَّغه إلى محمد صلى الله عليه وسلم [١] .

وإذا انتقلنا إلى العبادات والشرائع عند البهائية فيمكن القول : بأنها غريبة وبعيدة عن مفهومها فى الإسلام ، وأحياناً تكون غامضة ، وغير معقولة ، وأحياناً تصمت تلك الشرائع فلا تذكر حكماً حول أشياء معيَّنة .

ولقد اصطنع البهاء طقوساً معينة تُؤدَّى بها الفرائض التى اختلقوها ، وكانت خالية من الروح السماوى والرزانة الإلَهية ، والآداب اللائقة بها ، ومن الفوائد والثمرات والنتائج التى من أجلها فُرِضت ، خالية من المقصود والأهداف التى ترمى إليها ، ولقد حاولوا تغيير العبادات التى جاء بها الإسلام فى شكلها ومعناها، وكان الغرض من ذلك هو الإتيان بجديد ، وإجراء التغيير ، حتى يكون لشريعتهم المختلفة شعائر ، ولدينهم المصنع عبادات ، فلا يُتصور دين بلا شرائع وعبادات .

وليس باستطاعتنا أن نتابع تلك التغييرات التى أدخلوها على معنى العبادات وكيفية أدائها ، والتخفيف فى بعضها إلى حد الإلغاء أو الاستبدال وما إلى ذلك .

فلقد غيَّر فى الصلاة والزكاة والصوم والحج وغير ذلك من الشعائر وكيفية أداء تلك العبادات ، وأسقط فريضة الجهاد ، رضاءً للروس والإنجليز ، وحرَّم الحرية على الناس والاشتغال بالسياسة ، ولم تسلم الأيام والشهور والأعياد من دخول التغييرات عليها [٢] .

ولقد حاولت أن تستميل قلوب الناس لدعوتها ، فنادت بوحدة الأديان ، ووحدة الأوطان ، ووحدة اللُّغة ، والسلام العالمى ، والمساواة بين الرجال والنساء.

---

(١) الدكتورة آمنة محمد نصير : أضواء وحقائق ص ٥٦

(٢) إحسان إلهى : البهائية ص ١٤٩ - ٢٢٠ فى مواضع متفرقة .

وبغض النظر عن صواب تلك الأفكار أو خطئها ، وعن مدى صدق البهائية فى دعواها أو كذبها ، فإن القول بتلك الأفكار ليس مبرراً لادعاء النبوة ، فليس كل صاحب فكر جديد - مصلحاً أو مفكراً أو فيلسوفاً - يكون نبياً [١] .

ويقف وراء موقف البهائية من النبوة وادعائها ، وأن بابها مفتوح ، عدة أفكار أقاموا عليها هذا الموقف نوجزها فيما يلى :

* **إبطال عقيدة ختم النبوة** : فلقد اهتمت البهائية بإبطال ختم النبوة وإثبات أن النبوة لم تنقطع ، وقاموا بتأويل ما يدل على أن محمداً عليه السلام هو خاتم الأنبياء .

ويرى المازندرانى أن عقيدة ختم النبوة من المحن التى ابتلى الله بها العباد ، وأن مسألة ختم النبوة ونسبتها إلى محمد عليه السلام إنما هى نسبة اعتبارية وليست نسبة مطلقة ، وأنه يجوز أن يقال فى كل واحد : إنه الأول ، وإنه الخاتم .

وادعى المازندرانى أن عقيدة ختم النبوة تضاد رحمة الله وكرمه ، لأن ختم النبوة يعنى أن الله تعالى أصبح عاجزاً عن تشريع الشرائع وتقرير الأديان .

ولقد شبَّه موقف المسلمين من ختم النبوة بموقف اليهود من عيسى عليه السلام وإنكارهم له زاعمين أن الرسالة ختمت بموسى عليه السلام ، وأيضاً تشبيههم بموقف النصارى من محمد عليه السلام وإنكارهم لنبوته [٢] .

* **القول بالحلول والرجعة** : فلقد ادعى المازندرانى أن كل الأنبياء يجتمعون فيه ، فهو محمد وعيسى وموسى وجميع الأنبياء ، فجميع الرسل والأنبياء فى حكم نفس وذات واحدة [٣] .

والأنبياء مظاهر أمر الله ومهابط وحيه ، وهم بالحقيقة مظاهر جميع أسمائه

---

(١) إحسان إلهى : البهائية ص ٩٥ - ١٤٩ ، وانظر أيضاً : البهائية والقاديانية ، للدكتور أسعد السحمرانى ص ٩١ - ٩٨

(٢) الدكتورة سهير محمد على الفيل : البابية والبهائية ص ٢٧ - ٣٢

(٣) الدكتورة سهير محمد على الفيل : البابية والبهائية ص ٣٦

وصفاته ، هم مظاهر قدرته وقوته وإرادته ومشيئته ، ولا يمتنع صدور المعجزات منهم ، بسبب كلية النفس المقدسة المتحلية فيهم [١] .

ويدعى المازندرانى بأن الأنبياء شخص واحد ، ظهر بأسماء وأشكال مختلفة فى الزمن الماضى ، أما الآن فإنهم جميعاً - كما يدَّعى المازندرانى ويزعم البهائيون - إنما هو هذا المازندرانى بالشخص ، وهذا يعنى القول بالرجعة .

بل يصرِّح بالقول بالرجعة : « ... إن الأنبياء ظهروا فى أقمصة مختلفة ، وتشكَّلوا بالأشكال المتعددة ، أليس الجميع هياكل أمر الله .... » [٢] .

* **تطور الرسالات النبوية يخضع لتفاوت الاستعداد البَشرى** ، فهم يحاولون أن يتخذوا من تقدم البَشرية وبلوغها درجة من التقدم والرقى وسيلة وذريعة للتقول بأن ذلك يناسب مقام الرسالة الجديدة [٣] .

* **إنكارهم للمعجزات الحسية** : يرى البهائيون أن صدق الرسل يكون بالآية ، أى العلامة ، أما لفظ المعجزة والكرامة فهى ألفاظ مستخدمة لم يكن لها ذكر عند الأوَّلين .

والآيات تنقسم إلى قسمين هما : الآيات الكتابية ، أى الوحى السماوى ، وهو عبارة عن الحقائق والمعانى التى نزلت بواسطة الروح الأمين على قلوب الأنبياء والمرسلين ، ثم ظهرت على هيأة الكلمات من ألسنتهم ، وتجلَّت فى قوالب الألفاظ والعبارات من أفواههم ، وهذا القسم من الآيات هو الذى يدل على صدق الأنبياء والرسل .

أما القسم الثانى من الآيات .. فهو الآيات الاقتراحية ، وهى أمور غير ممكنة عادة ، تقترحها الأمة أو بعض منها على مدعى النبوة أو الرسالة ويعلقون تصديقهم له على ظهورها، وهى جالبة للهلاك، موجبة للدمار، لا تفيد اليقين، ولا يطلبها

---

(١) أبو الفضائل الجرفادقانى : الدرر البهية ص ٥٥ ، ٥٦

(٢) الدكتورة سهير محمد على : البابية والبهائية ص ٤٢ ، ٤٣

(٣) الدكتورة سهير محمد على : البابية والبهائية ص ٥٠ ، ٥١

إلا الفسقة والأشرار ، والمؤمنون الخُلَّص من أُمَّة كل نبى لم يطالبوا نبيهم بآية حسية أو معجزة اقتراحية .

ويرون أن الدليل يرتبط بالمدلول ، فادعاء الطب والنبوغ فيه لا يدل عليه الطيران فى السماء ، بل يدل عليه الإتيان بأفعال تثبت براعة ومهارة مدَّعى الطب ، وعلى هذا فلا ارتباط بين ادعاء الرسالة والقدرة على الأمور المستحيلة .

ونتيجة لذلك ، فالآيات الكتابية (الوحى) لها مزايا ظاهرة على الآيات الاقتراحية التى عبَّروا عنها بالمعجزات [1] .

ولقد زعموا أنه قد ورد فى القرآن ما يفيد صراحة امتناع إجراء المعجزات الحسية على أيدى الرسل ، ولقد أولوا المعجزات الحسية تأويلاً يؤدى إلى إثبات مزاعمهم ، وشككوا فى مصادر وصول الأخبار الخاصة بالمعجزات الحسية ، وانتهوا إلى أن المعجزة الحقيقية هى الكتاب المنزَّل على الرسول .

وهكذا يحاول البهائيون تبرير موقفهم من ادعاء النبوة ، وذلك بإبطال الأفكار التى تحول دون استمرار النبوة وتحقيق مآربهم ، فقالوا بعدم ختم النبوة وأن بابها مفتوح على الدوام ، وحاولوا أن يربطوا هذه الفكرة برحمة الله بعباده ودوام تلك الرحمة ، مخالفين بذلك الإسلام الذى أقر بختم النبوة ، وأيضاً معارضين الأدلة العقلية على ختم النبوة – سبق الإشارة إلى ذلك عند الحديث عن ختم النبوة .

وأيضاً حاولوا أن يجدوا سنداً لموقفهم من بعض الأفكار فى الديانات الشرقية القديمة ، وعند غلاة الشيعة والمتصوِّفة ، وقالوا بالتناسخ وبالرجعة وبحلول الإله فى الأنبياء ، بل هم مظهر الإله وتجلياته .... إلى آخر تلك الأفكار التى تبيح لهم القول بنبوة أدعياء النبوة منهم .

ولقد كان عجزهم عن الإتيان بمعجزات حسية كدليل على صدق ادعاء النبوة سبباً فى إنكارهم المعجزات الحسية كدليل على الصدق ، والواقع أنه لم يكن

---

(١) أبو الفضل الجرفادقانى : الدرر البهية ص ٦٥ – ٧٨

(٢) الدكتورة سهير محمد على : البابية والبهائية ص ١١٥ – ١٢٥

بوسعهم أن يأتوا بمثل هذه المعجزات ، كما أنه ليس بوسعهم الإتيان بالآيات الكتابية (الوحى) التى عدُّوها دليل صدق الرسل ، إنها دعاوى خالية من الدليل والبرهان وتفتقر إلى السند ، وأصحابها هم مرضى نفسانيون يستحقون العلاج .

* *

٣ - القاديانية :

ولد ميرزا غلام أحمد القادياني ، رئيس طائفة القاديانية والأحمدية بقاديان من بلاد البنجاب فى الهند سنة ١٨٣٩ ، ومن أسرة ثرية كان لها صلة بالاستعمار الإنجليزى فى الهند ، وعندما بلغ الرشد قرأ القرآن على بعض فقهاء الشيعة ودرس بعض الكتب الأوردية والعربية ، ولقد تقلَّد غلام أحمد وظيفة فى إدارة نائب المندوب السامى فى سيالكوت ، ولكنه استقال وعمل مع والده فى إدارة شئونه الخاصة ، وانقطع للعبادة والبحث فى الدين ، ولقد كان مضطرب الأفكار والعقيدة، عليل الصحة والنفس ، يتطلع إلى أنه مؤسس ديانة جديدة ويكون له أتباع وتلاميذ .

ثم مكث فترة على هذه الحال ، ثم ادَّعى أنه المسيح المنتظر ، وأنه يقوم بين المسلمين لهدايتهم ، كما قام المسيح ابن مريم لهداية اليهود ، وأنه الذى اكتشف قبر المسيح عليه السلام ، وباكتشافه لهذا القبر قد حلَّت فيه روح المسيح وقوته ، وأنه المهدى المنتظر ، وبذا يكون المجدِّد للدين .

وفى كلام القادياني ما يشبه القول بالحلول ، فهو يتلبس بروح السيد المسيح وروح كرشنا رب الخمر عند البراهمة كما يتلبس بأرواح غيرهم [١] .

ولقد قال أحد القاديانية وهو القاضى يار محمد القادياني : « إن المسيح الموعود (أى الغلام) بيَّن مرة حالته فقال : « إنه رأى نفسه كأنه امرأة ، وأن الله أظهر

---

(١) عبد المتعال الصعيدى : المجددون فى الإسلام ص ٥٥٠ ، عباس محمود العقاد : الإسلام فى القرن العشرين ص ١١٤ ، الدكتور أحمد عبد القادر الشاذلى : حركات الغلو والتطرف فى الإسلام .

فيه قوته الرجولية » ، ويقول المتنبىء القاديانى نفسه : « قد نُفخ فىَّ روح عيسى كما نُفخ فى مريم ، وحبلت بصورة الاستعارة ، وبعد أشهر لا تتجاوز عن عشرة أشهر ، حُوِّلتُ عن مريم ، وجُعِلتُ عيسى، وبهذا الطريق صرت ابن مريم » .

وعلى هذا تعتقد القاديانية بأن غلام أحمد هو ابن الله ، بل هو عَيْن الله ، يقول غلام : « خاطبنى الله بقوله : اسمع يا ولدى » . . . ويقول أيضاً : « إن الله نزل فىَّ ، وأنا واسطة بينه وبين المخلوقات كلها » (١) .

ولقد ادَّعى النبوة ، ونسبها إليه فريق كبير من القاديانية الذين يرون أن النبوة لم تُختم بمحمد ﷺ ، بل هى جارية ، وذلك لأن الله لا يزال يرسل الأنبياء لإصلاح هذه الأُمَّة وهدايتها على حسب الضرورة ، وأن خزائنه لا تنفد ، وأن القائلين بختم النبوة لا يعرفون قدرة الله ، ولسوف يأتى الآلاف من الأنبياء فى المستقبل إلى يوم القيامة .

وعلى هذا تعتقد القاديانية بأن غلام أحمد نبى الله ورسوله ، بل هو أفضل الأنبياء جميعاً ، ويقول غلام أحمد واصفاً نفسه : « أحلف بالله الذى فى قبضته روحى ، هو الذي أرسلنى وسمَّانى نبياً ونادانى بالمسيح الموعود ، وأنزل لصدق دعواى بيِّنات يلغ عددها ثلاث مائة ألف بيِّنة » .

ويقول أيضاً المتنبئ القاديانى : « وآتانى ما لم يؤت أحداً من العالمين » ، ويقول أيضاً : « أنا وحدى أعطيت كل ما أعطى لجميع الأنبياء » .

وتعتقد القاديانية بأن غلام أحمد يوحى إليه ، وينزل عليه كلام الله ، وليس هذا فحسب ، بل وحيه كوحى محمد ﷺ ، وإلهاماته كالقرآن ، ويجب الإيمان به، فيقول القاضى محمد يوسف القاديانى : « إن غلام أحمد مأمور بأن يسمع ما يُوحَى إليه لجماعته ، كما أنه واجب على القاديانية الإيمان به ، لأن كلام الله لا يُبلَّغ إلا لهذا الغرض ، أى الإيمان به والعمل عليه ، وهذه المرتبة لم تحصل إلا للأنبياء بأن يؤمن بوحيهم » (٢) .

---

(١) إحسان إلهى : القاديانية ص ٩٩ - ١٠١ (٢) المرجع السابق ص ١٠٢

وتعتقد القاديانية أنهم أصحاب دين مستقل ، وشريعتهم شريعة مستقلة ، ورفقاء غلام أحمد كالصحابة ، وأمته أمة جديدة .

ولقد ذكر غلام أحمد شريعته فقال : « فافهموا ما هى الشريعة ، فالشريعة هى عبارة عن بيان أمر ونهى ، فمن فعل هذا وقنن لأمته قانوناً ، صار صاحب الشريعة ، فأنا صاحب الشريعة لأنه يُوحَى إلىّ الأوامر والنواهى ، وليس من الضرورى للشريعة أن تكون مشتملة على أحكام جديدة لأن ما يوجد فى القرآن من التعليمات يوجد فى التوراة ، وإلى هذا أشار تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِى الصُّحُفِ الأُوْلَىٰ * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ (١) ، (٢) .

والواقع أن كلام غلام أحمد عن شريعة لا تأتى بجديد فيه مغالطة ، إذ أن الشرائع تُنسخ ، أما الشئ الثابت الذى قال به الأنبياء جميعاً هو وجود إلَه واحد له كل صفات الكمال ومنزَّه عن كل صفات النقص .

فهل نجد فى شريعة القاديانية ذلك الأصل الثابت الذى أجمع عليه كل الأنبياء.

وبدون أن ندخل فى تفاصيل تلك الشريعة المزعومة (القاديانية) ، بل تكفى الإشارة إلى قولهم بإضافة التشبيه والتجسيم لله تعالى ، فهو - تعالى الله عن ذلك - يصوم ويُصلِّى ، وينام ويصحو ، ويكتب ويوقع ، ويصيب ويخطئ ، ويجامع ويولد ، ويتجزئ ويُشبَّه ويُجسَّم على سبيل المثال يقول المتنبىء القاديانى غلام أحمد : « قال لى الله : إنى أُصلىِّ وأصوم وأصحو وأنام » (٣) ،(٤) .

ولقد أوردنا نموذجاً من تلك النصوص المذرية التى تنضح تشبيهاً ونقصاً ، والتى لا تليق نسبتها إلى البَشر العاديين ، فكيف نصف بها رب العالمين ؟ ولا شك أن هذه الأوصاف القبيحة مخالفة لكل الأديان السماوية .

علاوة على ذلك قولهم بالحلول ، وقولهم بعدم اختتام النبوة .

---

(١) إحسان إلهى : القاديانية ص ١٠٩ - ١١١ (٢) الأعلى : ١٨ - ١٩

(٣) البشرى ، للغلام القادياني : ٢/ ٩٧

(٤) إحسان إلهى : القاديانية ص ٩٦ - ٩٨

لكن يبدو من كلام غلام أحمد القاديانى ما يفيد أنه ليس يدَّعى نبوة تشريع ، أى ليس آتياً بشرع جديد ، بل هو يدَّعى النبوة المطلقة التى بدون تشريع مصاحب لها ، فلقد ذكر أن نبوته لا تنافى حديث : « لا نبى بعدى » ، كما لا ينافيه نزول المسيح من السماء عند المسلمين ، وأيَّد هذا بما نقل عن محيى الدين بن عربى أن النبوة التى انقطعت إنما هى نبوة التشريع لا مقامها (١) .

كذلك كان يدَّعى أن نبوته لا تتعارض مع القول بكون النبى محمد خاتَم الأنبياء بفتح التاء - لأنه خلاف خاتِم - بكسر التاء ، إذ أن ذلك يؤدى إلى أن الخاتَم ليس معناه آخر ، بل معناه أفضل ، أى أن النبى أفضل النبيين ، ولقد رد على ذلك الادعاء صاحب كتاب « القاديانية » بما يفيد خروج ذلك التأويل عن أقوال أهل اللُّغة والمفسِّرين (٢) .

وليس بوسعنا أن نتابع عقائد تلك الطائفة ، وهى عقائد فاسدة ، وادعاء صاحبها النبوة ادعاء كاذب ، ولعله نفسه كان يشعر بضعف دعواه أنه نبى ، فكان يحملها على المجاز لا على الحقيقة ، ولقد كان يشعر أنه لا حاجة إليه بعد بقاء القرآن سالماً من غير تحريف ، فادَّعى أن القرآن فى حاجة إلى مفسِّر .

ولقد قام أحد أتباع القاديانية بتفسير وترجمة للقرآن الكريم باللغة الإنجليزية تقع فى ألف وخمسمائة صفحة ، ولقد قام أحد الباحثين المعاصرين بعمل دراسة لهذا التفسير الذى وضعه « مالك غلام فريد الأحمدى » ، وليس بوسعنا أن نعرض لهذا التفسير ، بل يكفى القول بأن به تفسيرات لبعض الألفاظ غير مقبولة ، وخروج بها عن معناها ، فإنه قد جمع فى تفسيره الكثير من الأخطاء اللغوية والأخطاء الأخرى المضحكة أحياناً ، وتحريف بعض مفاهيم الإسلام ، وإنكار المعجزات وتأويل الآيات الخاصة بها تأويلاً تعسفياً وفقاً لرأيه فى نفيها ، ومحاولته إضفاء

---

(١) عبد المتعال الصعيدى : المجددون فى الإسلام ص ٥٥٢

(٢) إحسان إلهى : القاديانية ص ٢٦٨ - ٣٠٧ ، ولقد رد على ادعاءاتهم واستنادهم إلى موقف ابن عربى : عبد المتعال الصعيدى (المجددون فى الإسلام ص ٥٥٥) .

العصرية على تفسيره ، مما شوَّه التفسير تشويهاً كبيراً ، وجعل تفسيراته فى مجملها خارجة عن العقل والمنطق ، ولا يستطيع الإنسان العادى أن يتقبلها لما فيها من تكلف وتعسف ، إنها بالجملة لخدمة معتقدات القاديانية ، والتى ترى نسخ الأديان كلها السابقة عليها، وبقاء ذلك الذى يسمونه معتقداً وهو مبين الفساد [1].

ولقد جمعت حركة القاديانية إلى فسادها فى العقيدة أمراً سيئاً آخر ، إذ أمدَّت الحكومة الإنجليزية بخير جواسيسها لخدمة مصالحها الاستعمارية ، وقد كانوا أصدقاء أوفياء ، وكانوا موضع ثقة الحكومة الإنجليزية ، وقد خدموها فى الهند وخارج الهند .

* * *

(١) قام بهذه الدراسة الزميل الصديق الأستاذ الدكتور إبراهيم عوض بقسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة عين شمس ، ولقد تفضل بإعارتى تلك الدراسة ، وهى لا تزال مخطوطة ومصورة ويبين أن هذا التفسير يتسم بعدم الموضوعية ، والبعد عن العقل فى التفسير ، محاولاً أن يخدم أفكار القاديانية عن نبيهم ، وإثبات كل معتقداتهم عن طريق تلك التفسيرات الخاطئة والتأويلات الفاسدة للقرآن الكريم وهى بعنوان « دراسة لتفسير مالك غلام فريد الأحمدى » . (الدكتورة آمنة محمد نصير : أضواء وحقائق ص ٧٢) .

obeikandl.com